مكان تحت الشمس
روايـة

بقلم :
علي حليمة

مكان تحت الشمس

رواية

علي حليمة

إهداء

إلي من لم تحملهم معنا

أرجوحـــة القلب

ما بين الضحك والبكاء

الحب والحرب

إلي إشراقة القمر

مشيئــــة القـــــدر

أولادي

ســامح وســالي وســمر

التحضيرات

أن تختلس لحظات ثمينة ناجيا من هجير ذلك اليوم ، وتجلس بـــلا منغص ، فتلك معجزة تستحق التأمل .. فى جو خانق ، كانت جلســـة باستراحة " سيدي الدكروري" علي طريق مصر / الســـويس قبــل أي خاطرة تفد إلي قلبه وعقله .. تاق للتنفس بعمق أمال جسده المنـــهك ، قليلاً إلي الوراء ..أبقي الرقبة على استقامتها ليمكن لـــه اســتعراض مساحات الهدوء والخدر .. تمكنت نظراته الذاهلة مـــن صيــد بعــض مشاهد الحياة الآسنة .. هيه .. ما أصعب مســالك الحيـــاة .. أشــرع صدرة المائل وتنهد بعمق .. اخترقت رئتاه غلالة من الأبخرة الحـــارة المغموسة بالأتربة الصفراء .. التى تمور فى دوامات حلزونيـــة مـــن عمق الصحراء المتاخمة للمكان .. العاصفة بالخارج ما زالـــت تكلــل ذؤابات الموجودات باللون الأصفر . فى جو شبه خماسيني ، كيف عن له اليوم أن يأخذ نصيبه من المياه ليستحم به لقد أراق الكمية بأكملـها علي جسده الفتي مدفوعاً بشعور عابث ، قل أن يواتيه .. وهو يعلـــم تمام العلم أن اللحظة لن تدوم طويلاً .. فثمة عاصفة لن تبقي علـي أي وجه نظيف ، ولو للحظات.. لقد انتظر حتى تم توزيع الأنصبـــة.. ثــم اخترق الجموع حاملاً " جركنه " بحثا عن مكان ملائم للاستحمام .. ويا عجبا لقد تخطي بمسلكه ذاك كافة تقاليد الوحدة فهو لم ينتظر عـــودة الجندي المسئول " عن الإعاشة " بنصيبه ، بل هجر خيمتـــه ليقتنــص حقه غير عابئ بالقيل والقال .. تمكن من العثور علي المكان .. حفــوة العربة المجهزة التى تقع علي أطراف نقطة التجمـــع ، وثمـــة شــبكة

للتمويه ، تعلو العربة ، يمكن أن تحجز قدراً من ذرات الرمل الأصفر لو أحكم فردها.. بصعوبة تمكن من جذب ، أطرافها من قبضة الريح الأغبر .. قام بوضع بعض الصخور عليها بمحازاة حافة الحفرة ، حتى لا تجرفها الريح .. لكل معضلة حلا.. الجيش يقول لك تصوف .. وهكذا صنع له تصرفه شبه حمام ميداني .. آه لو رآه قائد الكتيبة فى وضعه العاري ذلك ، لأتهمه بالجنون.. وكم سبق له من مجازفات تخطي بها حاجز الأوامر المستديمة .. كانت سبباً فى لومه أكثر من مرة .. وهو علي هذا الحال لم يخرق قانوناً.. بل أن النظافة مطلوبة ولو علي حساب ماء الشرب . أما أن تأتي فى هذا الجو العاصف ، وبالرغم من ندرة المياه .. فهذا ما كان يخشاه .. ويخشى في - المقام الأول - لوم جنوده الصامت.. مجرد نزوة ، لا يعرف لها سبباً واضحاً .. وأن كان قد تذكر أنه أعاد قراءة خطاب من فتاته ، وافد من مسقط رأسه بتاريخ أول أغسطس به تهنئة مسبقة بعيد ميلاده القادم ، وقبلات لا يذكر عددها .. لأول مرة يتذكر هذا اليوم ، ويصمم علي أن يأتي به شيئا غير عادي .. لعل ذلك سبباً .

إمعاناً فى تحدي المناخ الصاخب .. كان قد صحب معه زجاجة عطر طيب بها جسده بعد الاستحمام .. ثم تألق فى بزته العسكرية الكاملة ، واتخذ استراحة " سيدي الدكروري " وجهته ، تسبقه رائحة الطيب المسافرة مع التيارات الهوجاء .. لم يسأل عن ترتيبات جمع طابور التمام ، أو تنظيم الحراسات الليلية - قبل مغادرته المعسكر - كعادته .. كان يمني النفس بجلاء قدر من الهموم عن صدره .. إلا أنه ، بعد أن توسط طاولته - بالركن المحبب إليه - الفى المكان هادئا علي غير العادة .. ظل صامتا يجمع شتات نفسه.. وجحافل من الحزن

الطارئ والكآبة تنتظر انطفاء جذوة الهمة .. رويدا رويداً بدأ يسري خدر الفتور .. إلي أن توقف نبض النزوة.. تسائل بعجب .. لم هذا الاصرار علي ارتياد مكان بغير إرادة واضحة ؟! لعله الخطاب المحير الذى أوقفني علي مفارق طرق لا أريد ارتياد أي منها .. آه .. لعلها ما زالت تأمل المزيد من الآمان ، الذى تفتقده النفس من زمن.. ما أروع أحلام امرأة وادعة .. لعلها الآن تخاطبني من فوق سريرها الوردي .. ليتني أقر نفسا قبل فتح نوافذ الهوي العذري علي مصاريعها .. بعدها اقرر .. لم هذا العذاب ، وأنا علي مشارف عصر تحجرت فيه القلوب !! .. ألمت به رغبة ملحة فى البكاء .. قاوم .. مسحت نظراته المكان طلباً للعون .. وجد ضالته.. هاك " عم صابر " نادل الاستراحة النوبي .. لم يصر علي الابتعاد .. لم يرحب به قادماً كالعادة ، وهو الآن يتسكع علي اطار " الطاقة " الزجاجية المؤدية لحجرة عمال البوفيه ، يفتعل الحديث تلو الآخر – طرداً لأسراب الكآبة والملل – مع عامل يقف مشدوها كالأبله ..

– عم صابر .. عم صابر ..

رفع عقيرته فى نغمة فاقدة الحماس .

– من .. كابتن " اسماعيل أمام " .

هكذا رد .. كأنه فوجئ بلقياه .. توجه إليه " صابر " مفتعلاً قدراً من الاهتمام يليق بالمقام .

– لم نسمع عنك من مدة .. هل أخذك التدريب منا .. كيف حالك ..

توقد صدره بالمرارة .. تنفس بصوت مسموع .. وهو يشيح بوجهه ..

– وهل يسأل عنا أحد ؟!

لمعت ابتسامة تودد علي سطح الوجه النوبي اللامع .. تردد قبل أن يقول :

– كيف ؟! .. نحن نسأل عنك كل الأحبة .. تكفينا سلامتك .. بالمناسبة ، لقد ترك لك " عزت بلية " مجلة أو كتاباً لا أعرف ..

تلقي الكلمات الأخيرة بشغف .. غمرته ابتسامة أضاءت وجهه الكابي .

– أنها مجلة الثقافة .. طلبتها منه بعدما علمت أنه يأتي بالجرائد اليومية من القاهرة .. لأنها لا تصل السويس .. أين هي ..

دهش عم صابر لتألقه المفاجئ ، وبش لابتسامته علي سبيل المجاملة ..

– سأتيك بها حالاً ..

غاب هنيهات ، ثم عاد وهو يلوح بها قبل أن يصل ، ليقف علي مدي شغفه .. دون تدبير تأتي المواقف تباعاً .. وفي هذه اللحظة بالذات ، تهبط عليه المجلة لتشكل جزء من يومه الغير عادي .. بداية التعارف مع الصحافة الأدبية تأتي مع أغسطس ، شهر ميلاده .. وبداية اللهيب شرارة نزوة .. صحيح أنه لم يقف علي مصدرها إلا بعد مصارحة عنيفة مع النفس .. إلا أنه بصدق يريد الآن أن تكون الصحوة مع بداية عامه السادس والعشرين ، الذى يهل عليه مع بواكير الصباح المنصرم .. سوف لا يستسلم لهزيمة بعد الآن .. بدأت

تتوارد عليه خواطر غريبة، تصور له أن مواقف الوطن فى شمولها لا تفترق عن مواقف النفس في أخص خصوصياتها.. وأن ما يعوق انطلاقة الوطن ، هي نفس الحواجز والسدود التى تعوق انطلاقة نفسه .. أليس هو صنيعة ذلك العالم الذاخر الذى تذوب فيه الملامح والحدود .. ولمَ الأغراق فى الفلسفة !! .. ألا تريد أن تكون كاتباً ؟!.. وما يمنعك !! وأمامك نماذج من البشر – تحوطك من كل جانب.. تلفحها أشكال شتي من المعاناة ، ألا يلهب ذلك شرارة الدافع !! .. لم التردد ؟ .. لم يكن ينقصه إلا المزيد من التأمل ، والتفاعل الحي مع واقعه .. لعله ينجز شيئا ذا قيمة .. خفت حدة توتره .. احتواه الهدوء .. عاد ينظر باشفاق وحنان لوجه النادل الأسمر ، وكأنه يراه لأول مرة .. أحس عم صابر بلسع النظرات الثاقبة .. فأحال بصره إلي الاتجاه المعاكس ، مواريا حرجه ..

– عم صابر .. عم صابر .. الأمس كان ختام المشروع وسيبدأ فوراً الافراج عن الاجازات والمبيت ..

تنبه " صابر عبد الله " .. وزام ..

– نعم .. نعم ..

ثم بعد فترة صمت تشى بالحيرة ، والتأمل ..

– ياه .. وهل ذا كله مشروع .. وأنا من ظن أنه الجوار الدائم ..

– نعم .. تصور ستة أشهر كاملة قضيناها بجواركم سففنا فيها الرمل .. وأنا من كان يظن أن الجبهة هي كل شئ . . وما بعدها هراء .. فإذا بي أري أن التدريب أشق .. تصور يا عم صابر .. لقد كان ختامها مسك .. فقد جاء ترتيبي الأول علي ضباط المجموعة

الضاربين .. بمحض الصدفة أى والله محض صدفة .. وأن شئت قـــل التوفيق .. دمرت هدفا تدميرا شاملا بطريقة مبتكرة أذهلت الجميــع .. أنا نفسى لا أعرف كيف حدث هذا .. لقد أخذت لجنة التقييـــم بيانــات الهدف المدمر لاجراء دراسة عليه لتقرير فاعلية الطريقة فى مجـــالات الضرب المؤثر .. ولم يتمالك خبـــيرا مـــن اللجنـــة نفســـه فـــأهداني ساعة يده الثمينة .. مشيرا إلي أنها أقل تقدير فى نظره.. والحقيقـــــة أنه بيني وبين نفسي حينما فكرت فى الأمر .. لم أجد فيه شيئا خارقـــا للطبيعة .. ؟! ..

قاطعه صابر باهتمام ..

– كيف يا كابتن الكباتن ؟! ..

– عفواً هذا ما لاتفهم فيه .. ويلزم خبير

– ليس إلي هذا الحد .. كفاءتك مشهود بها.. يمكن أن تبسط لـــي المسائل حتى أشاركك الفرحة ..

– علي كل الأمر ليس معضلة .. فأنا قبل هذا كنت قــــد مارســت إدارة النيران لمدفعية الميدان ذات المواسير بكافة أعيرتـــها.. وهـــى تستلزم نوعاً من الدقة الشديدة فى تقدير بيانات الهدف لأن نطاق تأثير الدانة محدود نسبياً.. وعند انتقالي للعمل علي القواذف ذات الأدلـــة .. وجدت نفس العمل أسهل بكثير.. باعتبار أن نطاق التأثير أوسع.. لـــذا فإنه لا يعول كثيراً علي الفروق البسيطة عند تقدير البيانات.. المــــهم أنني انتقلت من الصعب إلي الأسهل.. لذا فإنه كان مــــن الطبيعـــي أن تجاوز قدراتي حد من اقتصر تدريبه علي القواذف.. هذا لا يخصـــك .. سوف احتفظ لنفسي بهذه الملحوظات.. ياه.. ما الذى جعلني أتطــــرق

لكل هذا !! .. لعلها فرحة الظامئ إلي قطرات الراحة الشحيحة .. ويبدو أن القدر أصر علي أن يوفق ما بين أيام راحتي ، وشهر ميلادي .. آه بالمناسبة نسيت أن أقول لك أن اليوم يوافق عيد ميلادي .. ألا تريد أن تحتفل بي يا رجل ..

حدث " صابر " نفسه .. " وأنا من يقول ، ما كل هذه " الشياكة ".. ثم إنتتر واقفا وزعق فى شهامة ابن البلد :

– علي الرحب والسعة .. يا حسين .. يا حسين ..

أطل رأس من " الطاقة " الزجاجية المؤدية للبوفيه .. لوح له صابر باصبعين .

– عندك اثنين مرطب علي حسابي ..عندنا كم اسماعيل امام .. يا غالي أنت .. ثم لم يلبث أن سقط علي كرسيه وملامح الوجه تشي بأنه فقد الحماس تماما .. الأمر الذي آثار ريبة اسماعيل امام .. وجعله يقول بلا تحفظ :

– مالك يا عم " صابر " أراك تريد أن تقول شيئا..

– لا .. لا .. أبداً ..

ماذا يريد !! .. أيخفى شيئا ؟! .. الوجه لا يقوي علي المراوغة لكن النفس أصلب .. فليجرب المزاح معه لعله يفيض بما عنده :

– ضع وشاحا علي وجهك .. قل يا رجل .. ليس هناك غريب ..

وضحك اسماعيل .. بلكنة نوبية ألمح صابر دون أن يفصح :

– وماذا عن المبيت ؟!

– ماذا تعني ..

- أعني .. أعني .. بصراحة هل ستزورهم ..

أربد وجه اسماعيل .. آه .. الطيب .. الخبيث .. بماذا يمكـــن أن ينعته ؟! .. الخبيث يقف علي أشياء لم تكن فى الحسبان ، ولا يريـــد أن يصارحني .. فقط جس نبض .. بقدر ضئيل من التغابي يمكـــن أن نصل إلي المراد .. هكذا حدث " اسماعيل امام " نفسه قبل أن يسأل :

- من تقصد ؟! ..

بشئ من التحدي أتاه رد صابر

- ياأخي .. أقصد أسرة " عزت بلية " .. بائع صحف الاستراحة.. اتجامل طفلا بزيارة .. هل يليق هذا ..

رغم تأكده من أن شيئا لن يخفي علي أبله .. ويقينه من أن لغـــو الجدل لن يبعد كثيرا عن هذا المنحنـــي .. إلا أنـــه احـــس بارتعاشـــة مباغتة .. وأثلجت اطرافه بعد أن نضح منها العرق .. واستعد لملاقـــاة الملامح النوبية المضيئة بالتحدي :

- وما فى هذا ؟! ..

- فيه الكثير يا كابتن .. أنت لا تعرف شيئا عن هـــذه الأمـــور .. لأنك إنسان طيب ذو مروءة .. أراك تأتي الأموركيفما اتفق ..

وصمت لحظة لإبتلاع الريق واستيضاح الأثر .. ثم واصل :

- لقد شاع الخبر بيننا ، وكأنك الفـــارس المنتظـــر " للاسـطي " رابحة ..

- ومن رابحة تلك ؟ ..

– وأيضا لا تعرف .. صحيح أنك طيب .. أخت البيه يـــا ســـيدي الذى قابلته بالأمس القريب وسحبك إليها .. " عزت بلية "

هل تلك وقائع تستحق التسجيل .. لقد خلت يومياتك يا اســـماعيل من رائحة امرأة علي مدي سبعة أيام هى كل ما فكرت فيه وكتبتـــه .. وكأنك كنت تتعمد ذلك لكي تذيب روحك داخل صخور المنطقة.. وهـــاك امرأة تقحم نفسها داخل عالمك – بقسوة – علي ألســـنة الآخريـــن.. تبخرت أحلامه فى الكتابة .. حاصرته جحافل الهم من كـــل ناحيـــة .. وأيقن أن التجربة هي أوقع الأشياء قبل الكتابة.. وأن ثقافته تعجز عن فك طلاسم عالمه المتأجج .. بتر خواطره ورفع صوته محتداً :

– زادت الأمور عن حدها ..

زفر " صابر عبد الله " بلا انفعال واضح :

– صدقني " يا كابتن " إذا قلت لك أن هـــؤلاء النـــاس لا يليقـــون بمقامك .. أنت تعرف معزتك عندي .. أفديك بروحي .. فكر فيما أنـــت مقبل عليه .. " رابحة " قادرة .. عندما تريد شيئ لابد أن تبلغه ..

– يا عم " صابر " لقد خلقت موضوعاً من لا شئ .. وهذا شـــأن أصحاب الخيالات المريضة .. آسف .. لا أريد أن أنعتك بذلك ..

متجملاً بالصبر .. رد " صابر " :

– لا .. لا .. قل . فى ما شئت .. سأتحملك كابني ..

بادره " اسماعيل امام " بنفاذ صبر

– إذا كنت مصر علي ظنك .. فهذه هي الحكاية بالتفصيل ..

– نعم .. نعم .. كلي آذان صاغية

غمغم " صابر " بذهول .. وفغر فـاه مسـتعد للمزيـد .. واصـل " اسماعيل " :

– آخر مبيت حصلت عليه بشق النفس .. لم يوافق عليـه قـائد الكتيبة إلا بعد إلحاح لأنه لم يكن دوري .. ولما تبين له أني خالي مـن النوبتجيه .. ووقف علي زهدي الشديد فى البقاء .. بعدما فشـل فـى اغرائي بأنه سيصحبني تلك الليلة لحضـور حفـل بمسـرح الفرقـة الميداني ستحضره فرقة الكوميدي " أمين الهنيدي " .. أثر أن يقبل مـا تعللت به من حاجتي للاستحمام ، وغسل غياري ، بعد عناء أسـبوع فى جوف التباب والوديان .. وحتى يعطيني مهلـة للاسـتعداد لختـام المشروع .. وأيضا حتى يقطع علي سبل التعلل والمماحكة فيمـا لـو حدث أي تقصير فى المستقبل القريب .. فهو رغم فطنته وحنكتـه ، لا يطمئن كثيراً لمستوي ضابط الاحتياط ويراهم كما قـال لـي يومـا – أصحاب مزاج .. مرة فى العالي .. ومرة فى الواطي .. ولا يفرق فـى هذه بيني وبينهم – برغم علاقتي الحميمة به – ووقوفه علي حقيقـة مستواي .. وهو الآن قد هيأ لي أعلي مزاج ، ولم يبـق إلا أن أرفـع رأسه بين أقرانه من قادة كتائب المجموعة .. وقد كان .. كما سـبق أن شرحت .. لذا فإن قلبه الآن لا تسعه الفرحة من ناحيتي .. وأصبـح علي استعداد لإجابة كافة طلباتي .. المهم أنه وافق علي مضض ، بعد أن خسر رفيقا جاهزاً لمتعة الحفلات ..

ملحوظة : " اسماعيل امام " هنا يعمد – بطريقة لا شعورية – إلي الإيغال فى تفاصيل لا تهم الموقف .. آملاً فى جر " صابر " بعيداً عـن

نقاط التوتر وحساسية الظنون.. بعد أن اشتم رائحة الخطر تفوح من لهجة صابر المتصاعدة " .. بعد أن مرقت هذه الخاطرة .. واصل :

– كان قد انقضي الشطر الأكبر من النهار ما بين إلحاح من جانبي ، وتسويف من جانبه .. الأمر الذى أفسد كل خططي للاستمتاع بلحظات الراحة .. وجعلني أوشك أن أعدل عن رغبتي فى المبيت حال حصولي علي التصريح .. إلا أني وجدت أرجلي تسحبني بلا إرادة – إلي طريق مصر / السويس .. لشدة احباطي ، لم انتظر العربة الخاصة بنا ، وأمعنت فى السير علي غير هدي .. وأنا أهيب بك أن تأخذ فى حسبانك كل تلك الظروف المحيطة .. لكى تكون عادلاً فى حكمك ..

ما الذى جعله يتصور أنه محل اتهام .. وأن عليه أن يقدم كافة دفوعه المشمولة بالتفاصيل المغرقة فى واقعيتها..ولماذا هيأ لآخر أن يكون حكما علي أخص مواقفه .. ثمة إحساس طاغ ، بأن دفوعه لا تخرج عن كونها نوع من الألم الممض مطمور فى ثنايا النفس.. أطلقه علي شكل صرخات مسموعة .. ليخمد به إحساس آخر بالذنب .. واصل ..

– فى موقف كهذا كنت علي استعداد لقبول أي بديل لخططي التى فشلت لتوها ، عدا إجباري علي حضور حفل بمسرح محاط بجهامة المنطقة .. وقد كان .. سارت الأمور كيفما اتفق .. وتناوبت علي وسائل للمواصلات لا تليق بضابط .. لا قفار الطريق من كل ما هو لائق فى مثل هذه الساعة المتأخرة .. ووصلت إلي " محطة كوبري الليمون " بعد أن حل الليل .. ثم ساقتني الصدفة لكي التقي به ..

فرحت بلا مناسبة .. كأنى عثرت علـــي ضـــالتي .. هـــاك شـــعوري بالضبط .. كنت علي استعداد للتعلق بأي شئ يزيح كآبتي ..

توقف هنيهة .. ليعاود النظر إلي " صابر " .. وجده مكبلاً بإســـار من الصمت والفتور .. لم يعبأ .. فقد قرر فى تلك اللحظة ، أن يـــودع صرخاته قلب الصخر ..

– اللحظة بالذات يمكن أن تحدد دوافع التصرف.. وهاك ما حـــدث لحظة التلاقي .. قبلها كنت غارقاً فى الذهول .. لا أعرف لي وجهة .. خاصة وأنا أعرف أن الذى أقصده يهجع فى مثل تلك الساعات المبكرة من الليل – أن لم يكن علي موعد سابق – ولا يمكن اقناعه بـــالعدول مهما كانت المغريات .. وهو " شوقي خليل " زميل عمري ودراستي .. الذى ظل محتفظاً بشقتنا بشارع جمال – بحدائق شـــبرا – مـــن أيـــام الدراسة ، بعدما تفرقت بنا السبل – بعد التخرج – وجاء تعيينه صدفة بأحدي الشركات بالقاهرة .. المهم آثرت التجول وحدي بوســـط البلـــد قبل الأوبة إلي سجنة .. سرت سيرا مترنحـــا متجـــها إلـــي محطـــة اتوبيسات ميدان رمسيس .. وأطلقت العنان لخاطري .. أقارن بين ليل المدينة الصاخب وبين وحشة ليلنا بساحة التدريب ، الذى ليـــس بـــه بصيص من نور سوي وميض الطلقات المضيئة ، وطقطقات طبنجـــات الاشارة للوحدات التى تزاول تدريبا ليليا.. يا سلام يا عم " صـــابر " .. أيمضي العمر هكذا دون أن يحس بنا أحد .. أريد أن أعرف – علـــي وجه اليقين – أين موقعنا فى ساحة هؤلاء الصاخبين ؟!.. أيمكـــن أن نعلوا – يوماً – على ضعفنا ونحفر بأظافرنا مكاناً تحت الشـــمس !!.. آه .. سحقت آمالنا العراض تحت أقدامهم .. وهم غارقون فى التيه ..

دمدم لنفسه بحزن " لقد خلت خرائطهم من هـذا الإحداثـي الـهام ".. وهدهده الانفعال بذبذبات حارة ، صهرت روحه بالكامل.. أوشكت دمعة علي الفرار من حدقته ، لحقها قبل الأنزلاق على الوجنة ليواري لحظة الضعف .. خالس الوجه النوبي بنظرة جانبية.. وجدة قد نضـي عنـه الفتور والضجر ، ولم يبق من أثر سوي التشـوف .. وقلـب يـرف بالشفقة والحنان :

– أكمل يا ابني .. كلي معك ..

– إذا كنت معي كما تقول .. فأرجو أن تجيبني علي هذا السـؤال : " ماذا لو كنت فى مثل حالتي ، وأهداك الطريق رفيقا !! .. هل يمكـن أن تخذله ؟! .. "

– المهم هو نوع الرفيق

آه .. بدأت تخلع النقاب عن ظنونك " يا صابر " عدل عـن طلـب الاجابة ، ثم واصل :

– صعدت إحدي علب السردين تلك التـي يسـمونها اتوبيـس.. وناضلت لأجد لقدمي مكاناً.. وهنا صاحت إحدي النسوة الجالسات " يـا أخي حاسب .. دبابتك ستفرم رجلي " .. أنفجرت العربة بـالضحك .. وتطايرت تعليقات من هنا ومن هناك .. وتأملني الجالس والواقـف ، كأني أعجوبة زماني .. قبل أن أعقب ، أحسست من يشد ذيل سـترتي، وينقر علي ظهري بنقرات واهنة متوجسة.. علي فـترات متقطعـة.. تجاهلتها – فى البداية – ثم لم ألبث إزاء الإصرار أن اعتقدت أن ثمـة من يعمد لهذا النوع الجبان من العبث والمداعبة ، حتى يسـمر بـاقي الحشد المخنوق .. قبل أن تفلت منى بادرة للرد علي الاهانة – التفـت

خلفي – لأضبط الفاعل متلبساً .. وجدت " بلية " علي مقربة يلوح بيده كغارق يلتمس نجده .. لم أر معه أي جرائد أو مجلات .. حينما تحققت من الأمر .. وأن أحداً لم يعمد السخرية بي .. كـــأني عــثرت علــي المنقذ .. ابتسمت .. لم أتمالك نفسي .. رفعت عقيرتي لكي أعلو علــي اللغط الدائر بالعربة .. ولكى أشعر الجميع بأن لي حضوراً يبز مثـــل هذه السفاسف والبذاءات ، وأن ما جري من لحظة لم يكن يعنيني فـــي شئ :

قلت :

– أيه .. كيف حالك يا عزت ؟

– عال .. مثل الهباب ..

ضحكت من قلبي كما لم أضحك من قبل ، وشاركني القريبون ..

– ماذا تفعل هنا ؟!

– كما تري .. صايع ..

– ياه .. إلي هذا الحد !! ..

– لم يرد وبدا مبتئساً

– لم تتحفنا بصحفك . من مدة ..

أصر علي صمته بهزة عناد من كتفيه .. أوقفنـــي علـــي حقيقـــة تناسيتها .. وهي أني أمام طفل ، وليس رجلاً .. ولا يجب أن أخاطبـــه كند .. رغم أني لم أشعر بفارق أبان معاملتي له بالاسترا‌حة – فأنا لـــم أقترب من عالمه رغم أنه قد أصبح بالنسبة لي من العلامات البـــارزة بالمنطقة كعم صابر .. وحظيرة الغزلان والأيائل البرية .. الملاصقـــة

للاستراحة .. ارتبطت به وتعلق بي .. كصديق حميم وتبادلنا السجائر والمشروبات .. بل أنه كان يعمد أحيانا إلي الجلوس فى مواجهتي واضعاً ساقا علي ساق .. مدعيا الشرود بطريقة مبالغ فيها .. ثم يضحك ملء قلبه ، ويشير إلي نفسه ويقول " هذا أنت يا كابتن .. أقلدك " .. لم أجد غرابة بين مسلكه ذاك وكونه طفلاً .. ورغم احساسي بان لقب " بلية " الذى أطلق عليه ليس له علاقة باسمه الحقيقي .. وإنما قد أطلق عليه تصغيراً لشأنه.. لضآلة حجمه حتى بالنسبة لأقرانه فى السن ..

آلمني آيات لحزن البادية فى عينيه .. حاولت جره بعيداً عنها.. قلت مداعباً :

– الاستراحة ، لم تسترح لغيابك ..

قال :

– بدلاً من أن تستجوبني إعطني شلنا ..

أخرجت حافظتي علي الفور.. ونقدته جنيها بأكمله.. ضاغطاً قبضته عليه .. فتح القبضة علي اتساعها .. وتأمله بازدراء غريب .. ثم قذف به في وجهي بعصبية وقال :

– ما هذا ؟! .. قلت شلنا لا أكثر ..

– لشدة حرجي أجبته إلي طلبه .. دون أن أسأل عن الغرض .. فى سرية وصمت كأني أجابه بلطجيا أخشي غضبه .. الأمر الذى أثار انتباه من حولنا .. فعادت عاصفة الضحك أقوي مما كانت .. وأصبحت التعليقات أكثر جرأة ووقاحة .. وفى هذه الأثناء أتى سائق العربة

وأخذ يزيح من فى طريقه حتى وصل إلي مقعد القيادة.. ثم ضرب كفاً بكف وقال :

– يا عالم .. يا بقر .. ايه مظاهرة .. لن أتحرك قبل أن أري المرآة .. أبقوا إذا شئتم ، كما يحلو لكم ..

وجم الجميع .. ولم يتحرك أحد من مكانه .. وهنا تغيرت لهجة زعيم المظاهرة .. وتحول – بلسانه الذى يقطر استخفافاً – عنا إلي السائق مصطنعاً الملاطفة :

– يا عم ابراهيم ، صلي علي النبي .. كل واحد هنا وراءه مصالح..

رد السائق :

– لا .. وحياة أبوك .. لا يوجد عندي كلام .. شبعنا قرف ..

اثناء الجدال – الذى نأي عنا – مال نحوي " عزت بليه " وهمس:

– هل وراءك عمل أو مهمة ؟ ..

قلت :

– لا.. فقط مبيت حتى الصباح ..

– أقصدك فى خدمة .. هل لديك مانع ..

– لا .. فقط أعرف ..

– أذن ، لننزل الآن قبل أن تتحرك العربة .

ولما لم تكن لي وجهة محددة .. وزادتي ما رأيته ، زهداً في أي نزهة .. أطعته ، كالمنوم ، أنزلقنا من العربة بصعوبة .. أنعشتنا نسائم الميدان .. صحبني لمسافة خطوات .. ثم عرج علي " كشك "

قريب .. واشتري " بالشلن " الذى نقدته أياه سجائر .. وأشعل لكل منا واحدة .. ثم بدأ يعلن ما وراءه :

– اليوم تشاجرت مع أختى فى الورشة .. لطمتنـــي فلطمتـــها .. فقامت بضربي ، ثم طردي .. وقالت لي أنـــها ســتقطع دابــري مــن المنزل، لأني صايع ، ولا نفع من ورائي .. كل ذلك لأني كنت أريــد أن أحميها من ذلك الحيوان – الذى يدعي قرابته لنا – وقد شاهدته وهــو يريد الاعتداء عليها .. بالفناء الملحق بالورشة .. وقد خرجت لتـــوي من المنزل بعد أن أخبرت أبي – ذالك الذى لا نفع منـــه – أنـــي لــن أريهم وجهي .. وكنت أنوي ذلك .. لولاً أن قابلتك .. فقررت أن آخــذ رأيك ..

قبل أن أتحري صدق ما يقول .. قلت :

– حسنا فعلت .. ورأي أن مثلك يجب أن يعود لبيته ..

رد بعصبية ..

– وهل هذا بيت يا " كابتن " بيتنا بالسويس بحي " سيدي الغريـب" وليس بشبرا .. وعلي كل إذا كان هذا رأيـــك .. فلابــد أن تصحبنـــي لتعيدني بأي حجة ، حتى لا أبدو .. – فى نظرهم – طفـــلاً .. فـــهذه عقدتي الوحيدة ..

ضحكت فى سري وقلت .. " هذا الولد يسبق سنه بأكثر مما كنـــت أتصور " .. وبدا لي أنه لم يكن جادا فيما أزمع عليـــه .. وأنـــه كـــان يلتمس ما يعينه علي العودة .. ولولا وجودي لعاد من نفسه لذا فـــإنني صممت علي أن أرجع به .. وأثناء السير أخذ يسرد لي فـــي بـــراءة واقعة الاعتداء .. التى بدت لعينة أنها مجرد شجار وقـــع بيـــن هـــذا

الغريب " الفحل " وبين أخته .. كان مسرح الشجار صالون العربة " الأوبل " الصفراء القابعة بفناء الورشة .. كانت أخته كما ذكر - منحشرة بظهرها ، بين الدواسه ، والمقعد الأمامي .. متقطعة الأنفاس تقاوم بقبضتها ، وأرجلها - مقاومة واهنة - ذلك الجدار المنطرح فوقها ، يحاول تطويقها بعنف .. لم يكن يصدر منها نأمة سوي صوت الضربات والركلات وهو يعجب كيف أن صرخة واحدة منه ، أنهت كل هذا العراك .. وأوقفت الحائط أمامه مخذولاً مطأطأ الرأس .. كما ذكر أنه عندما تحقق من فاعلية سلاحه ، ظل يواصل صراخه .. مستغلاً حالة الشلل المؤقت التي أصيب بها الطرفان .. إلي أن تجمع حشد لا بأس به من أهل الحاره وأصبح علي رأسهم - كزعيم مظاهرة - يصف لهم تفاصيل ما شاهد إلي أن تقدمت أخته فانهت الصراخ بلطمة قوية علي وجهه .. فأشعلت بذلك نيران معركة جانبية .. غطت بفضائحها وصراخها أحداث المعركة الأولي ، وانتهت بطرده..

أسلمت له أذني طول الطريق .. فقط مستمعاً وعافت نفسي الاستجواب .. لتقصي حقيقة الواقعة.. خاصة وأنها قد أخذت تتبلور فى مخيلتي بطريقة طمست معالم سذاجتها وبراءتها.. التى طرحت علي آذاني من لحظات .. وقلت لنفسي ، أن الواقع كفيل بحسم ظنوني ..

بعد أن طال المسير اكتفيت بسؤاله عن مقر سكنهم .. قال فوق الورشة تماما .. بحارة " السد " المتفرعة من شارع " الترعة البولاقية" .. ثم واصل هوايته فى الخروج بي من شارع إلي آخر - وأنا فى آثره - إلي أن تقطعت أنفاسي .. مرة متقدماً ومرة متخلفاً..

ومرة موازيا .. كشأنه تركت له القياد الأمر الذى أربك خطواتي.. ولم تسلم محتويات الطريق من عبث لسانه ويداه .. مرة يشد أكرة باب عربة ومرة يخطف غطاء رأس طفل .. ويحاوره ثم يرميه بعيداً عنه ليعاود خطفه من جديد .. ومرة يقفز من علي حاجز رصيف بخفة .. ثم ينسى وجهته تماماً .. وكل ما حوله .. بالتوقف علي أعتاب محل لبيع لعب أطفال .. فاغرا فاه بانبهار .. بل لقد زادني حرجاً علي حرج .. اثر انبطاحه أرضا .. وانزلاقه متسللاً – كأحد الزواحف – ليري ما بداخل حانوت غير مكتمل الغلق .. به بصيص من نور يتسلل عبر الفرجة الضيقة للباب .. خفت أن يساء به الظن .. خاصة وأننا قد ولجنا مشارف منطقة بالشارع شبه مقفرة .. كالمنوم .. سائر أنا ألاحق نزواته .. وقد شدني ما بأفعاله من خفة وتسلية ، تمنيتها لنفسي ، لأهزم فلول الحزن والضجر .. المطبقة علي روحي .. لولا حواجز الأصول .. ومقتضيات السن .. ثم .. ثم انحرف بي يمينا إلي عطفه جانبية تسمي عطفة " برقة " متفرعة من حارة " السد ".. كانت العطفة علي ضيقها ، مزدحمة بورش السيارات ، ومحلات الخردة والسمكرة .. وعلي الرصيف الأيمن يوجد مقهي صغير يسمي مقهي " شلبي " توقف " بليه " أمام المقهي .. دون اعتبار لوجودي معه ، جلس علي أقرب كرسي خالي .. واضعا الساق علي الساق .. شأنه فى حالة العناد .. وأشار بيده :

– هاك هي ورشتنا .. عليك بالذهاب للتمهيد لقدومنا..

فى المواجهة تماماً .. طالعتنا واجهة الورشة .. بصعوبة قــرأت نبشا لخطاط مبتدء " الورشة الفنية لسمكرة السيارات وتجارة الخردة " لصاحبها الحاج " أمين عبد الحافظ وأولاده ".. قلت :

- وهل هذا يصح أنا لا أعرف أحداً هنا ولا يعرفني أحد ..

مدَّ ساقيه بلا اهتمام .. وقال :

- ستجد هناك " الأسطي " .. وستعرف كل شئ ..

- ومن هو " الأسطي " ؟ ..

- أختي .. تعرفك كأنك واحد من العائلة .. أبسط يا عم ..

عجبت للأمر .. ووقفت مشدوها أعاود النظر إلــي تلــك العطفــة المحشورة فى ثنايا المدينة كأحد عوراتها .. وأزعجني غرابة منظـوي بها .. وزكمت أنفي رائحة غريبة ،هي مزيج من الرطوبة ، والعفــن ، وزيوت العربات المنسكبة علي مربعات الأسفلت القديــم .. ووجدتــها مسقوفه فى أكثر من موضع بتندات مصنوعة من الخيش المتــهري ، فوق أغلب الورش ، الأمر الذى يحجب أشعة الشمس - الجانب الأكبر من النهار - ويساعد علي تفاعل مزيج الروائح .. يا لغرابة الليلة !! أين كنت .. وماذا أصبحت .. وما الذى ينتظرني ؟! .. ضقت ذرعاً به.. وحذرته بأنه إذا تمادي فى عبثه فســوف أعــود أدراجــي اســتجاب لتحذيري .. نهض .. اتجه معي إلي الورشة .. تأملت المكـــان عــبر منظاري الخاص .. الفيته لا يبعد كثيراً عن الصــورة التــى رســمتها بخيالي .. محل علي صغره يزدحم بأدوات المهنــة .. ومكتــب كــالح ملوث بالزيوت والشحوم .. ملحق به فناء من الجهة الخلفية - بابـــه مفتوح علي مصراعيه - يستخدم كمخزن لمخلفـــات الشاســيهات ..

وعربة أو أكثر من النوع الذى أعطبته الحوادث .. لـم أعبـأ كثـيرا لترحاب فتاة مسترجلة يعلو وجهها غبرة هباب وشحوم .. تخطر فـى لباس خاكي وغطاء للرأس مما يلبسه جنود المشـروع .. لـم يكـن يميزها فيه عن الرجل إلا انسياب وليونة منطقة الخصر والردفين عبر الحركة الدائبة .. ورجل صامت .. يبدو أنه الوالد .. أسلمه الشلل إلـى مشارف شيخوخة مبكرة .. وقد ظل يتأملني بإنزعاج خفت حدته بعـد ما تحقق من مسعاي .. ولا يمكن أن أنسي نظرة الامتنان التى حبـاني بها ، وتلك الفرحة الوقورة التى علت وجهه .. التـى كـانت مقدمـة لنشيج مكتوم ظل جسده يهتز له طيلة جلستنا .. لم ألبث طويلا ، بعـد ما أسلمت لهم الولد " بلية " بطريقة تشبه إجراءات تسليم المذنبين من الجنود لسجن الوحده .. الأمر الذى أثار حنقـه وجعلـه يعلـن بـأن الطريقة ستجعله قعيد حبس انفرادي ستحرمه مـن زيارتنـا لأمـد لا يعلمه ، وحملني المسئولية .. أما بقية ما حدث فـأنت تعرفـه ، مـن المصدر الذى لم تفصح عنه .. فقط زيارة أخـرى - علـي هـامش الأولي - لتأكيد أواصر الود ، والعرفان بالجميل .. ذاك كل ما حدث ، وقد كان علي أن أقدم دوافع الزيارة التى لم تخطر ببالي .. ولـك أن تعتقد ما شئت .

بتلك العبارة الأخيرة ، أنهي " اسماعيل امام " استطراداً قطع بـه مساحة زمنية لا بأس بها .. دون طائل .. ليكمل به يومه الحـافل .. وفى الجانب الآخر ظل " صابر " ساكنا لا تصدر عنه نأمه سوي بعض الايماءات التى تشي بأنه لم يتخلف عن ركب المتابعة فقط .. وبذا فإنه يكون قد تخلص من عبء الافصاح عن حقيقة احساسه بتلـك الفتـاة المسترجلة التى لم ير لها مثيلا بين قريناتها ، ممن يقتحمن مجـالات

العمل مع الرجل – جنبا إلي جنب .. لقد كان نوع العمل – فــي حـد ذاته – هو الوجه المدهش للحكاية .. ومما لا شك فيه ، أنها أهــدت له – بذكائها ودماثتها – نموذجاً فريداً لبساطة اللقاء ما بيــن أنثــي ورجل .. أخذ يتسلل إلي عالمه بطريقة هادئة .. ملكـت عليـه كافـة حواسه .. تفوق ما عاناه من تجاربه السابقة ، التــى مــارس فيـها أشكالا شائهة من الحب .. طمستها بسهولة صروف الأيام .. وافترقـا وهو لا ينسي الوعد الجاد باللقاء الدائم .. الذى أعلنته – دون خـوف أو تصنع أو دلال – علي مشهد من ذويها ، الذيــن بـدوا لــه أنــهم يسلمون لها القياد ويثقون فى حكمتها باعتبارها رب الأسرة الحقيقي .. الأمر الذى جعله يوقن بأن حياته سائرة حتما إلي أحضان حقبــة لـم يألفها بعد .. وعاد يفكر بشكل جاد فى حكاية الوالد " بلية " الذى قـدم له – دون أن يدري منعطفا جديدا قد يقلب حالة الركود العاطفي التـى يعانيها رأساً علي عقب .

أبان المشروع القاسي طمس الحكاية بأكملها .. حتى كاد أن ينساها .. إلي أن أعادها " صابر " إلي مسرح الواقع .. بقوة أضرمت النار في قلبه ، من جديد .. والآن يريد أن يعرف شيئا عن " بلية " بحدسه العفوي أحس أن ثمة وشائج قوية تربط بينه وبين " صابر " نادل الاستراحة .. انه في الظاهر يبدي استياؤه من تواجده ، وعلاقاته برواد الاستراحة ، وتودده إليهم ، وتجرؤه عليهم في كثير من الأحيان .. إلا أنه يضمر ي ـسه إحساساً بالمسئوليه ـمه لا يفضحه إلا الحرص علي حمايته ، حال تعرضه لأي عبث أو اعتداء ، من أحد الجنود الوافدين علي الاستراحة .. بدافع من تلك الخواطر توجه بسؤال مباغت " لصابر " :

– قل يا عم " صابر " .. ما حكاية الولد " بلية " ؟ ..

رواغ صابر مدعيا عدم الاهتمام :

– لا تردد سيرته علي لسانك .. دع الخلق للخالق .. يكفيك ما أنت فيه ..

– ولماذا ؟ !

– أنه بدأ يعتاد عليك .. والناس مقامات ..أنت كابتن كبير في نظرنا ، وأيضا محامي قد الدنيا .. وهو طفل لا يشعر بفارق .. والحياة في نظره لهو وتسكع .. ويحزنني أن أراه يعاملك كرفيق يشاركه المهنة ، ويطلب منك سجائر يدخنها شأن الكبار وأنت لا

تمانع .. هل هذا يليق ؟ ..ألا تعلم أن في ذلك مفسدة له أن كنت تـــأمل فيه صلاحا ..

بذكاء .. شدد " إسماعيل " من حصاره أكثر من ذي قبل :

– وما شأنك به أن فسد !!

أربك قوله " صابر " تراجع مرغماً :

– فعلا ليس لي به شأن ..

– عندى تفسير آخر لحالته .. أنه قد يبدو للوهلة الأولي مجرد كم مهمل من البشر .. وبتعبير موظف – دشت بشري – لكني أدرك فـــي عيونه شيئا آخر .. أنه أشبه بطفل غافل يتسكع علي أبواب مســجد .. يشهد من بالداخل بانبهار وإعجاب .. لا يعرف سببه .. فقط يحس فـــي قرارة نفسه أن هناك عملاً جليلاً قائم دون الحاجة إليه .. نفس الشيء يحدث بالنسبة " لعزت " علي أبواب عالمنا .. نحن الذين وارينا أنفسنا أحضان الجبال والوديان ، نمارس طقوسنا الخاصة .. الغريبـــة عـــن عالم الآخرين .. وهذا ما يجعله هائم لا يقر له قرار .. وعلي اســتعداد لأن يرتمي في أحضان الطيـــب والمشـــاغب منـــا .. متخطيـــاً كافـــة المصاعب .. فقط أنت لا تقر الحقيقة .. وتهرب من مجرد ذكر حكايته، أو طبيعة علاقتك به .. التى لا تخفي علي ساذج .. وسوف أعرف كـل شئ في حينه أن آجلاً أو عاجلاً ..

دهش " صابر " واكتفي بقوله :

– دعنا من الفلسفة

ثم صمت .. وزاغ بصرة في اتجاه الباب الخارجي للاســـتراحة .. منصتا لصوت موتور دائر

– آخر ميعاد السويس / مصر .. وصل ..

وهب واقفا يعيد ترتيب المكان ويمسح بعض الطاولات الخاليـــة .. ليعلن لاقرانه أنه لم يغب لحظة .. وللوافدين استعداده الدائم للعمـــل .. وليهرب من المواجهة الحاسمة مع " إسماعيل " .. توقف الأتوبيـــس في مواجهة الاستراحة ، وتوافد سائق ضخم ذو جسم رياضي يتبعـــه بعض الركاب .. فرادي وجماعـــات .. علـــي الفـــور عمـــر المكـــان واستيقظت إرجاؤه ، بطنين اللغط والضحكات الخوالي .. كانت ملامـــح السائق تدل علي خفة الظل .. ذكرت " إسماعيل " بملامح أحد زملاء عمله السابقين .. طلب شطائره المخصوصة .. وكوباً من الشـــاي .. جلس في مواجهة " إسماعيل " .. ثم أخذ يلتهمها بخفة غير عاديـــة .. شده منظره الهادئ ، وطريقة تناوله لطعامه .. لأن يختلس النظر إليـــه بين آونة وأخرى .. وقال لنفسه بحسد " تلك هي الحياة " .. إلـــي أن ضبطه السائق متلبســـاً .. جفـــل .. أحـــس بشـــئ مـــن الارتبـــاك ، قطعه السائق ببساطة وبلا حرج .. بأن وجه نظرة باسمة إلي عينـــاه مباشرة :

– هيه .. لن نأخذ منها شيئا ..

تجاهل " إسماعيل " قوله .. وظل علي إطراقه .. ســـمعه الرجـــل الذى يدير الطاولة .. ابتسم .. وجه إليه حديثا متودداً :

– هل تذكر أغنية " أم كلثوم " السابقة علي أغنية " لسه فاكر " ..

رد عليه السائق مداعباً :

– أنا فاكر أنا أكلت إيه امبارح .. يا شيخ أشرب لك كوب شـــاي ينفعك ..

تواري عامل البوفيه وراء خجل ظاهري .. ابتسم " إسماعيل " رغما عنه .. مما زاد تودد السائق له بمداعبات أنسته شيئا من همومه :

– هذا الطريق يا أبني سيظل ورائي إلي أن يهدمني .. بالأمس كنا نواجه طلقاتهم المباشرة .. والأن نواجه " بلابيع " الطريق الزمنية .. التى لا نعرف كيف ، ولا متى ستنفجر .. لقد أكلت حفر الدانات ، وحوافر المجنزرات معظم أسفلت الوصلة ما بي الأربعين والمثلث .. وعندك طريق العوايد بأكمله .. ولا أستبعد أن تمتد – في القريب العاجل – حتى مشارف الكيلو أربعة ونصف .. لكن ماذا نفعل .. سنظل نعمل ما في وسعنا .. حتى لا نخذل المتعبين أمثالكم .. بالمناسبة البيه من " مصر " .

تأمل " إسماعيل " الجرم الهائل .. قال لنفسه .. " كيف يهدم هذا " .. قبل أن يرد مستدركا :

– لا .. من " السنبلاوين "

– أحسن ناس ..

عاودته إطراقه خجل .. وتناهي من قريب صوت " أم كلثوم " يشدو " بالأطلال " .. سرت الكلمات الحزينة في كل كيانه .. فأفرزت صوراً لأطلال حقبة بعينها .. كادت يوماً أن تقتله كمداً .. طمسها سريعا .. عبرها بيسر .. ليجتاحه حنان غريب لشيء قد افتقده من مدة طويلة .. وهو الحب والمرأة .. لم يعد يحلم بامرأة كسابق عهده .. ضاعت أفكاره المثالية عنها لتصدمه حقبة قاسية تقول له في عنف أن الحب هو الآخر شئ موضوعي يتأثر بكافة الظروف .. أذن ليس له أن يحزن ، إذا مانعته أحدهم " بإسماعيل الجبلاوي " فكافة العلاقات هنا

جافة جفاف صخور الجبال .. وأيضا لها حرارة هذا الفصل .. ياه لقـد انقضي الشطر الأخير من النهار .. دون أن يشعر .. وهاك بشائر الليل قد حلت .. تأمل ساعته وجدها قد جاوزت السادسة .. دون مقدمـــــات انتتر واقفا .. وانصرف بطريقة أثارت عجب جليسه .

لدي عودة " إسماعيل " من الاستراحة .. كـــان فـــي اســـتقباله الجندي " حسن سعد الدين " حارس خيمته – وهذا الجندي لــه قصـــة سنعود إليها في حينه .. يكفي أن نقول أن لقاءه " بإســـماعيل إمـــام " جاء بطريق الصدفة .. أبان ظروف قاســـية .. وقـــد أبقـــاه لديـــه – كمراسلة – مضطرا ، فهو يكره أن يخص جندي بالميدان بمهنة كـــهذه – وقد أقبل عليه باشا وبادره بتهكم معتاد:

– أين كنت كل هذه المدة ؟! .. لقد قلب " الصدر الأعظم " الدنيـــا بحثاً عنك ..

الصدر الأعظم .. لقب ألصقه الجندي المشاغب بقـــائد الكتيبـــة ، تعريضا به .. وقد شاع حينا .. وهمس به الجنود لضباطـــهم –علـــي استحياء– أبان لحظات انسجام نادرة .. واصل :

– بعد ما طالت غيبتك .. تناسي وقاره وعظمته ، وأتي بنفسه إلي هنا ليسأل عنك أنت بالذات .. ولما لم يجد غيري بالخيمة .. اعـــتراه البكم ، ولحظني من تحت لفوق باحتقار ، وعظمه .. ويبدو أنـــه قـــال لنفسه " صبحنا اليوم بوجه مـــن " .. ثـــم انصـــرف تحوطـــه ذيـــول المنافقين .. وقد علمت منهم ، أن مؤتمرا عـــاجلاً للقـــادة الأصـــاغر بمناسبة انتهاء المشروع سيعقد بخيمته .

نهره " إسماعيل " علي اجترائه ، وأمره بالانضباط وإلا عوقـــب .. بطريقة عنيفة ، بترت لسانه لفترة .. ردد أبانها بينـــه وبيـــن نفســـه " ماذا دهاك أيها الطيب الودود " .. ثم عاود الانفلات :

– اللهم أني قد بلغت اللهم فاشهد ..

– يبدو أنك لا تريد أن تتخلى عن طريقتك .. تلك التى جرت عليك المصائب .. وسأعرف كيف أقطع لسانك .. جندي " حسن سعد الدين " انتباه .. حبس شهـ .. قاطعه " حسن " :

– أكمل يا أفندم .. حبس شهر .. كله سيان .. لعلك نسـيت أنـي منتظر محاكمة !!

– أذن سأتخلى عن قضيتك .. ولك أن تبحث عن محامي آخـر .. ومن باكر لا أريد أن أري وجهك هنا .. وسأبحث لـك عـن زنزانـة مناسبة بسجن اللواء .

– أكمل جميلك .. بدلا من أن أنتحر .. لست أنت الذى يفعل ذلك .. بعد أن سدت في وجهي كافة السبل .. أنا واثق مما أقول .. أنت تعلـم أنه لم يعد أمامي سوي الجريمة أو الانتحار .. فلم يعد هنـاك معنـي لوجودي بينكم بلا عمل .. ولن تتركني كما أنا فأنا أعلم أنك تفـهمني وتحبني .. ما محبة إلا بعد عداوة ..

صمت ليهدئ من انفعاله ثم واصل :

– أسكت يا فندم .. مرارتي ستنفجر من هؤلاء النـاس .. أنـهم يطالعونك اليوم بوجه أسد .. ثم في الحرب يكونون جرذانا اسألني أنـا من حضر حرب يونيو .. أنت طيب لا تعرف شيئا .. لقد ظللت أيامـا هائما بجوعي وعطشي .. تورمت قدماي .. نمت في أحضان الموتـي علي جانبي الطريق لأتفادى دوريات النصف جنزير .. ماذا فعـل لنـا أمثال هؤلاء القادة .. لم نرهم .. وعلي شاطئ القناة كنـت أري رتبـا تخلع من علي الأكتاف وتطأها الأحذية .. ويتمحك أصحابها بالعسـكر أمثالنا ، ليفلتوا من نقاط التفتيش .. ولـدي سـماع صـوت طلقـات

" العوذي " تمرق من علي الرؤوس .. كانوا أول المنبطحين أرضـــا .. أسكت كفاني .. أنا لا أطيق المتعجرفين في أوقات الســلم .. يركبنـــي ألف عفريت لدي رؤيتهم .. فلتكن الحرب ليعرف كل مقامـــه .. لعلــك تدرك أن كافة أخطائي تأتى من هذه النقطة بـــالذات .. وقـــد حـــاولت مراراً أن أبعد عن نفسي شيطان السخط .. خاصة .. بعد ما رأيـــت أن الجيش قد أصبح يحوي أمثالك من القادة .. لكن مــــن أنـــت بجـــانب هؤلاء .. أنهم كل شئ هنا .. فلتكن الحرب يا ســـيدي .. أنـــا فـــي انتظارها كمجنون .. وسوف أشهدها - لا نتقم مما عانيت - حتى ولو كنت علي حبل المشنقة .. لا أريدك أن تفهمني غلط .. فأنـــا أحبــك ، لأنك من نوع آخر .. ولا أريد أن أفقد ثقتك في ... لكم حاولت مــــراراً أن أكبح ذلك الحيوان الذي يخور بداخلي .. لأجلك فقط .. لكنى وجـدت نفسي أضعف مما كنت أتصور .. أعذرني يا سيدي ، فقد أصبحـــت لا أطيق حتى أهلي .. بالأمس القريب كنت أنزل الإجازة لأتشـــاجر مـــع زوجتى - دون سبب - علي مشهد من الأولاد ، دون مراعاة لبكائهم، والآن أصبحت لا أري وجهها إلا في الأحلام .

لأول مرة يراه " إسماعيل " يزرف دموعاً حقيقية .. أخفي وجهــه بين يديه رثيما يهدأ .. ثم أشرأب ، وقد أضاء بابتسامة مريرة .

- بالمناسبة أبني " رجب " يسلم عليك ..

- كيف أبلغك ؟ ..

- في الحلم .. هأ هأ هأ .. هااي ..

أعقب الضحك الممزوج بالبكاء ، صمت حزين ، لم يعـــهده فيــه " إسماعيل " .. الأمر الذي حدا به إلي التراجع .. قال لنفسه .. هـــذا الولد من معدن طيب .. لكن أحداً لا يفهمه هنا .. مازحه :

- جندي " حسن سعد الدين " .. كما كنت ..

- أنا لا كان .. ولا كنت ..

ثم واصل نوبة الضحك الشبيه بالعويل .. كمن يبادر طفلا بهدية .. لوح " إسماعيل " بيده في وجهه علامة المرح .. ثم أسـرع بتغيير مجري الحديث:

- ألا تعرف يا ولد أن اليوم عيد ميلادي

كمخفف الصدم .. بأدوات الإعادة والترجيع .. التي يعرفها جيـداً جنود المدفعية .. أحدثت الكلمات مفعولها بأسرع مما توقع :

- نعم أعرف ..

- ممن ؟!

- لنا طرقنا ..

- أين " التورته " أذن ..

- هاك ..

ناوله علبه " جاتوه " .. ذهل " إسماعيل " .. أوشك أن يبكي :

- يا ابن الأبالسة .. أردته يوما غير عادي .. وقد كان .. من أين لك هذا ؟! ..

- من " الكانتين " ..

- أين الشاى والشموع .. والأصدقاء .. والحفل ..

- لا .. أيها العاقل الحصيف .. هذا بعد عودتك من المؤتمر ..

• • •

كان المؤتمر قد أوشك علي الانتهاء ، حين أطل وجه " إسـماعيل" من فتحة باب الخيمة .. هلل المؤتمرون لظهوره ، كأنهم عثروا علـي

ضالتهم .. فقد كانوا بانتظار عقد السامر المسائي في خيمتـــه .. لأن دوره قد حل .. وخشوا أن يكون قد نسي ذلك .. بادره القائد :

– كالعادة نراك متأخراً .. أين كنت يا " إسماعيل " .. ألم يبلغـك الفالح ؟

– أبلغني لتوه ..

– دائما تجعلونا نكرر ما قلناه .. الأمر باختصار .. باكر سـنـنتقل نحن والقادة إلي منطقة " الشلوفه " والقرى المحيطـة بـها لانتخـاب مواقع الضربات .. رئيسية وتبادلية تمـهيداً لاستكمال التجـهيزات الهندسية للخطة ٢٠٠ فقط .. وستبدأ أعمال الحفر اعتباراً من الأسبوع المقبل .. لديك النطاق مهشر بأكمله علي الخريطة بيننا وبين القـوات الصديقة .. يمكن مراجعته الليلة مع قائد سريتك .. وبالمناسبة ألغينـا المبيت بالنسبة لك وستكون أجازاتك أثناء الحفر والتجهيز الهندسـي ، بالمناوبة مع قائد الموقع ..

فكر في المواجهة التى حدثت توا بينه وبين " صـابر عبـد الله " نادل الاستراحة .. والتى أوقفته علي حقائق كانت لفترة قريبة مجـرد ظن .. عن العلاقة الأكيدة التى تربط ما بيـن " صـابر " و " عـزت " وتسائل " هل يمكن أن تطمس يوما تلك الحقبة بسهولة " ..

– ماذا .. هل هناك سؤال .. سمعتك تقول شيئا ..

تنبه " إسماعيل " .

– لا .. لا .. فقط أقول هل سننتقل مـن منطقـة الجفـرة ..إلـى الجبهة ..

– علمي علمك .. فقط علينا تجهيز مواقع متقدمة .. ضمن خطـة الجيش الثالث ..

– هل ستكون هناك معونة من المهندسين .. بلدوزر .. حفـــار .. مثلاً ..

– الاكتفاء الذاتي يا " إسماعيل " أولا .. ثم إذا جــاء بلــدوزر أو غيره فزيادة الخير خيرين .. ثم بتهكم وعندك بطلك المغوار " حســـن سعد الدين " .. بالمناسبة هذا الولد لا أريد أن أري وجهه أثناء مـــدة الحفر .. لا هنا ولا في " الجفرة " .. خذه معك وضع عليه حرسا ..

– وهل عليه حرس الآن .. قلت لك أنه مسئوليتي ..

– أنت حر .. أنا لا أعرف متى سيحاكموه .. لقد مضي عليه مـدة طويلة .. وفاض الكيل اخشي أن يشيع الانحلال بين أمثالــه .. متــى سيحاكموه .. عندك فكرة يا " إسماعيل " .

– سنخطر بذلك في حينه ..

– سمعت أنك ستدافع عنه أمام المحكمة ..

– لن أتخلي عنه .. وعدته بذلك ..

– أيضا أنت حر .. هذا لا يستاهل .. بالمناسبة ، مـــاذا أعــددت لسهرتنا الليلة .. أعلم أنها ليلة الختام .. ولابد أن يكون ختامها مسك، كما يقولون ..

كان ضباط الكتيبة قد شرعوا تقليداً غير معروف بالنسبة لوحــدات المنطقة .. شئ جديد من نوعه .. وهو أن يســـتضيف ضـــابط بقيـــة زملائه بمقر إعاشته – سواء خيمة أو ملجأ حسب الأحوال – مرة كـل شهر .. ويأخذ المكان شكل المنتدي الصغير .. لإزجــاء الوقــت بعــد الفراغ من أداء الواجبات اليومية .. وقد بدأ التقليد باقتراح من ضـــابط التوجيه المعنوي .. بغرض زيادة أواصر المحبة والتآلف بيـــن عمــد الكتيبة ، والوجوه الجديدة الوافدة .. وقد قوبل الاقتراح – في بدايتـــه

- باستهانة ثم أصبح - بالإصرار - لا غني عنه كمنتــدى للتشــاور وحل المشكلات العاجلة للوحدة .. ولتأكيد جدية الغــرض وضــع لــه جدول محدد بالأسماء ..

فكر " إسماعيل " لبعض الوقت .. ثم زام بذهول :

- ياه .. هل هو دوري ؟! ..

- وهل نسيت !! ..

تذكر " إسماعيل " حفل عيد الميلاد الذي جهز له " حســن ســعد الدين " .. ابتهج :

- عظيم .. عظيم .. ستكون ختامــها مســك .. وســتكون فــي انتظاركم مفاجأة لن تنسوها ما حييتم ..

هلل الجميع .. وعلا صوت " محمد لبن " قائد السرية :

- ما أحلاك .. يا أبو سمعة .. عندما تفكر وتدبر ..

أقبل الجميع ، علي نصف بطيخة مخروطة علي شكل كعكة عيــد الميلاد .. مغروس علي سطحها عيدان كــبريت مشــتعلة .وحولــها أطباق " الجاتوه " وأكواب الشاى الساخنة .. انفجرت ضحكــات مــن القلب لغرابة المشهد .. وكان الختام كما توقع " إسماعيل " يوم غــير عادي .. لم ينغصه سوي ظهور " حسن سعد الدين " بيــن آن وآخــر كنادل فرض علي المنتدى الصغير .. بغير هوي القائد .

حكاية قديمة توشك أن تندثر .. أعادها إلي مسرح الواقــع ، دأب هذا الضابط الفتي .. من مدة لا تعد ذرة بحساب الزمن - يقول عنـــها " صابر " أن ذكراها قريبة كأحداث الأمس .. أتي هــذا الضــابط إلــي الاستراحة طلبا للارتواء .. ثم أصبح له ركنا خاصا ، يــــهجع إليــه ، أبان لحظات شحيحة يطالع صحفه ومجلاته ، ويكتب شيئا .. ونادر مـا يكون بصحبة أحد .. في البدء ظنه أخرس لطــول صمتــه ، وإيثــاره الدائم للإيماءات عند الضرورة .. لكن " صابر" أحبه لدماثة خلقــــه .. ويقول أيضا .. قل من يعرف حكايتي .. لكنه الآن يكاد لا يخفي عنــــه شيئاً .. وأصبح ينكأ جرحي بين الحيـــن والآخــر .. ســبحان مغــير الأحوال .. أتراني الوحيد من بين العالمين الذى ينفرد بحكاية خاصــة ، تفوح منها رائحة النتن والخيانة .. ويظل بعد رحيل " إسماعيل" غارقـا بين ذكرياته إلي أن يرديه النوم أو الانهيار .. ثم لا يكاد يصبح عليـــه نهار إلا ويكون قد غفر لمن كان السبب .. ويظل علي شوق لرؤيــاه ، إلي أن يحين موعد لقياه .. أتراه حبا من نوع آخر !! .. أم أنه يدخــر له تلك الذكري - إلي حين - حتى لا يثقل عليه بهمومه .. حسنا فقــد نأي " إسماعيل " الآن بظله بعيداً .. وترك له الوحشة والجرح القديم .. مع بواكير ليل ، لا يعلم كيف سينقضي .. وهاك ماضيه يطل عليه مــن بين أغطيته الخفيفة الرثة .. كأصداء حلم يقظة تسلل في الفترة ما بين فتور الصحو .. وبداية الغفوة .. بانسياب تدريجي .. أسقطه - بنعومة - فريسة خدر الكابوس الذي يهرب من مجابهته .. فها هو وقد وفــد

من الجنوب إلي القاهرة شأن آخرين غيره .. طلبـــا للعمـــل والحيـــاة الناعمة .. وقد عمل حمالاً لحين ، بسوق " روض الفرج " .. حلم أهل الجنوب في الثراء .. بداية شاقة اعترضت أحلامه لفترة .. لكنه ثـــابر بما ادخره من العمل .. وما تبقي معه من مكافأة .. نتيجة اشتراكه في حرب اليمين إبان تجنيده .. واستطاع أن يعمل بائعاً متجـــولاً للخضـــر والفاكهة بالمناطق المحيطة " بروض الفرج " .. بعد أن عرف أســـرار السوق .. وأخيراً أمكنه أن يتوج حلمه بفتح متجـــر صغـــير بعطفـــة جانبيه لحارة متفرعة من شارع الترعة البولاقية .. واستمالته إحـــدى الأسر بالمنزل الذى به متجره .. وخصته بمودة خاصـــــة .. وكـــانت " بدرية " ابنتهم الوحيدة بين عدة ذكور ، هي حبه الأول .. وجد فيـــها نقيضاً لصبايا بلدته .. جذبته ملامحها الصبيانية وجرأتها .. وبيـــاض بشرتها الناعمة .. والتى تعد فاكهة في نظر فتيـــة أهـــل الجنـــوب .. وسريعاً ما توج هذا الحب بالزواج .. وكانت بداية انطلاقه في عـــالم التجارة .. لم يكن يتوقعها رغم إسراف زوجته ، وميله الدائم للإغـداق علي ذويها .. إلي أن أتى ذلك اليوم الذى ذاق فيه مرارة الهزيمـــة .. يوم علم بخيانتها .. فقد كانت .. قبل زوجها على علاقة بسائق .. ظل يتردد عليهم بحجة قرابته لأسرة زوجته .. وعندما ما كان يبدي رفضا أو اعتراضا علي سلوكها .. تواجهـــه بوجـــه مكشـــوف .. وتفتعـــل المشاحنات .. وتتحداه بكثرة الخروج .. ولأول مرة يشـــعر بأنـــه قـــد أصبح غريباً وحيداً .. حتى بعد أن أنجب منها ولداً .. فـــي مواجهـــة عالم لا يرحم .. كانت أسرتها تتكتل للزود عنها – بالحق وبالبـــاطل – إذا ما أغضبها .. لم يشفع له عندهم النجاح أو الولـــد .. وذات يـــوم صارحته ، أنها لا تطيقه .. وتحب الآخر .. وأنــــه لـــو كـــان رجـــلاً

لطلقها .. غلي دمه .. وظل يضربها بجنون حتى كاد أن يقتلها .. إلـي أن خلصها أولاد الحلال .. ولم تعد إليه .. طلقها .. هربت مع السـائق ، تاركة له طفله .. أصيب بانهيار، أرداه مريضا ذاهلاً ، لا حول لـه ولا قوة .. لفترة استنزفت أمواله ، وما حققه من ربح ومن نجـاح .. وخلي المتجر من البضائع، وفكر في بيعـه وهجـر شـقته بـالمنزل المقابل ، والعودة إلي مسقط رأسه .. في فترة بلغت حد اليأس لم يجـد فيها ما يقتات به .. واكبت نكسه " صابر " تلك النكسة المروعة التـي حدثت علي مستوي الوطن ، وعلم " صابر" أن وفوداً مـن مـهاجرى منطقة القناة قد حلوا علي هذه المنطقة الشعبية طلباً للإيواء .. سـعى لدي بعضهم ، للحصول على مبلغ يبدأ به من جديد نظير التنازل عـن الشقة والمتجر .. وجد معظمهم خالي الوفاض .. إلى أن فوجئ يومـاً بمهاجر من نوع آخر يهل عليه .. كان اللقاء بمقهى " شلبي " الـذي يتصدر العطفة .. بادره القادم :

– صابر عبد الواحد .. أليس كذلك..

– نعم هو أنا .. أي خدمة ..

– أمين عبد الحافظ .. مهاجر من السويس .. عنـدي كلمتيـن .. أتسمح

– نعم تفضل ..

جلس الرجل بصعوبة ، وشت بتهدمه ..

– كلانا شريك مأساة واحدة ..

– كيف ؟! ..

– أنت بضياع الزوجة والمال ، وأنا بضياع الأبن والموطن .. لقـد مات ابني في الحرب وتركنى قعيد الحسرة والمرض ..

ياه .. هذا الرجل يقف علي ظاهر وباطن مأساته .. كيف عرف ؟!..
اعترت " صابر " مسحة من خجل حاول إخفائها .. تردد قبل أن يقول :

– هذا .. هأ .. هذا غير صحيح .. من قال ذلك ؟ ! ..

– لا تكذب علي نفسك .. لا شئ يخفي علي أهل العطفة .. ولا أخفي عليك أني قريب لأهل زوجتك .. وقد نزلت ضيفا عليهم إلي أن يفرجها ربنا .. وعندما وقفت علي مأساتك وعرفت أن الفاجر .. ولا أخفي عليك أيضا أنه أبن أخي .. غدر بها تركها وفر بجلده لتعود تجر أذيال الخزى والعار .. تشاجرت معهم بسببك وزهدت في معاشرتهم .. وكنت أراقبك وأنت حائر بابنك لدي من يسوي ومن لا يسوي .. وهنا هتف بى هاتف .. وقال لي .. لقد عثرت يا أمين علي أبنك .. أنه أمامك بالعطفة .. أنه " صابر " .. وأنت فعلا من الصابرين .. أنت أبني ، ومن كنت أبحث عنه .. لم لا تكون واحد من العائلة ؟ ..

– وكيف يكون ذلك ؟! ..

– هذه بادرة حسنه ، فهي تدل علي أنك لم تيأس من رحمة الله .. أسمع يا أبني أنا لا أعدك بمال .. فالحال كما تري .. أنت لست في حاجة إلي مال .. ولكنك في حاجة إلي رعاية لكى تقف علي قدميك من جديد .. وهذا لا يتأتي إلا من داخل أسرة .. أطرح عليك ما أوحى به ضميري .. لم لا تستضيفنا أنت ، وتبعد فكرة بيع الشقة والمحل .. لنبدأ معاً كشركاء .. نحن أصحاب مهنة لا يخذلها الزمن .. مهنة السمكرة وتجارة الخردة .. أبق علي كل شئ باسمك .. ولنقم سويا بتعمير ما خرب .. تكفينا غرفة واحدة من سكنك .. وبذا يتسنى لك إنقاذي من براثن من خانوك .. أنهم في ذيلي – بعد ما عادت " بدرية" تجر أذيال الخيبة والندم – يلاحقوني ليل نهار .. يلحون علي لكي

أكون وسيط صلح ، ويستعطفوني من أجل الولد .. يــا للعجــب !! .. هاهم تذكروا أن لهم ولدا .. لكن ضميري يا ابني لا يسمح .. وأرجــو منك ألا تضعف ، إذا ما واتاك وسيط غيري ..

ثم صمت .. وأردف بعد مدة :

– هاك ما ورائي .. ثم بعد ذلك الأمر يتوقف عليك ..

تنبه " صابر " .. " بدرية " مرة أخري ..أحرقه الشوق .. ولســعته نيران الغيرة والحقد .

– يا والدي لك الشقة بأكملها .. ولي غرفة أنا وأبني

عجب لنفسه .. كيف أسرع بالموافقة بالرغم من علمـــه بقرابــة الحاج " أمين " لأسرة كلا الخاتنين ..

وعادت الأيام لسيرتها الأولي .. انتعش المحل بنشاط يختلف عمــا ألفه ودرب عليه .. وأسرة بأكملها تتسابق علـــي رعايتــه وأبنــه .. وكانت ما تزل تخيم عليها سحابة الحزن لاستشـــهاد أكــبر أبنائـــها ، والعائل الحقيقي لها في حرب يونيو .. وبالرغم من أن " صابر " كـــان قد أصبح العوض الذى لا غني عنه إلا أن الحزن كان قد فت في عضد الكبار .. بدأت بوادر الشلل تطفوا علي أطــراف " الحـــاج أميـــن " .. وأصيبت الزوجة والصبورة الحاجة " مفيدة " باكتئاب مزمـــن جعلـــها تعف عن الكلام .. ولا يحركها أي مشهد مما يمر بها .. ولم يبق لـــه سوي حماية ، أو إعالة الثلاثة الباقين .. " فكرية " الابنة العانس التـي خصته بمودة خاصة .. وعناية شديدة بولده أجبرته علي طلب يدهـا .. لكي يهزم ضعفه ويقطع الطريق أمام ذكري " بدرية " .. التـــى بـدأت تسوق عليه القريب والبعيد لإعادة المياه إلي مجاريها .. و " رابحــة " تلك الفتاة التى في مقتبل العمر .. وآثرت أن تخفي جمالها الأخاذ عـن

الأعين وتأخذ سمت الولد لتقيم ما تهدم من صرح الأسرة .. وقد كانت تجيد أعمال السمكرة والتجارة .. وتشد " صابر " إلي مجاهل السوق الجديد عليه .. وبالرغم من أنها كانت تكن له الحب والاحترام وتري فيه المثل الأعلي للكفاح والتضحية .. إلا أنه كان يعاملها بتحفظ .. نظرا لجرأتها وغرابة ما تقوم به من أعمال بالنسبة لأهل العطفة بالكامل ..

وعزت الابن الأصغر ذاك الهائم علي وجهه دائما .. لا يقر له قرار .. ترك المدرسة .. ولم يطق أعمال الورشة .. استقطبه تجار الصحف للعمل كبائع " سريح " ..

كان زواج " صابر " من " فكرية أمين " بداية شقاء من نوع جديد .. فقد لاحقته بالغيرة من زوجته السابقة .. خاصة وأنها قد أصبحت علي بعد خطوات منهم ..

وبدأت تعرض نفسها وتعلن عن وجودها بين أهل العطفة – كلما سنحت لها فرصة ، متألقة في صباها الذي لم تؤثر فيه تلك السقطة .. وأنعكس ذلك علي تصرفات فكرية فبدأت في خلق المشاكل بسبب أبنه الذي كان من قريب موضع اهتمامها .. وقد بدأ يكبر وتصبح له طلبات .. إلا أنه لكثرة ما صادف " صابر " من مكاره .. كان قد وطد النفس علي احتمالها ، إكراما لأبيها الطيب ، ومراعاة لمرضه .. وكان لا يني عن تهدئة نفسه بتلك العبارة " كل شئ يمكن احتماله .. إلا الخيانة " ..

وكما حدث في الماضي .. صحا " صابر " ذات يوم ليري عربة بالورشة ليست غريبة عليه .. سأل عن صاحبها .. فأخبرته " رابحة " أنها لأبن عمها .. آه .. ها هو الكلب يعاود الكره مع أقرب أبناء

الحاج " أمين " إلي قلبه .. أحس دبيب مأساة جديدة تلـــوح معالمـــها علي وجه " رابحة " .. ولأول مرة يثور في وجهها .. ويطلـــب منـــها إخراج العربة من الورشة وإلا هشمها .. ولم تفهم رابحة سببا لهياجه الفجائي .. صحيح أن صاحب العربة له يد لا تنكر في مأســـاته .. إلا أنها كصاحبة عمل " وأبنه سوق " لا تري معني لطرد " زبون " مـــهما كان خلقه .. الأمر الذي جعلها ترفض طلبه في حـــزم .. ولـــم يكـــن للقرابة أي اعتبار في وضع القرار الحازم .. وكأنما أتي هـــذا القـــرار ليكون بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير .. به وقف " صابر " علي حقيقة مكانته بالورشة .. هل هو فعلا صاحب عمل .. لا أنـــه مجـــرد رجل .. واجهة .. ديكور لاستكمال المنظر .. والمتصـــرف الحقيقـــي امرأة بكل جبروتها .. وهو لم يألف ذلك .. وقد ذكره ذلـــك بجـــبروت " بدرية " زوجته السابقة .. وكيف داست علي رجولته .. ولم تشـــهد الورشة وجهه بعد ذلك ..عاد لعزلته يواجه تقريع زوجته ومشاكســـتها .. ولم يقو علي مصارحة الوالد بما يعتمل في نفســـه مـــن ظنـــون .. مخافة أن يسقط الرجل صريع هموم جديدة .. وفسر له عزوفـــة عـــن العمل بأنه لم يكن الشخص المناسب لهذا النوع من النشـــاط الـــذي لا يفهم فيه .. وأن البركة في أبنته .. وقدم له أعذارا تتعلق برغبته فـــي أن ينأي بنفسه عن تلك المنطقة ، التى كانت سببا في شقائه ومرضـــه و .. وقدر " الحاج أمين " موقفه .. وسعي له لـــدي صديـــق عمـــره وجاره بالسويس " الحاج رجب العشري " صاحب الاستراحة لكي يعمل بها .. وقد رحب به علي الفور .. وقد استراح " صابر " لعمله الجديد، وتفاني فيه .. حتى ينقذه من ذاك الضعف الذي اعتراه بعودة " بدرية " للعطفة وكاد يسقطه في براثن حبه القديم .. الذي لم تستطع صـــروف

الأيام أن تنال منه .. والذى استطاعت زوجته أن تنفذ لأسراره بحاسة امرأة .. وقد لاحظ " صابر " أن غيبة أسبوع واحد بالاستراحة قد أعاد السكينة إلي بيته .. دون أي جهد من جانبه .. لكنه لم يسترح كثيرا لظهور " عزت " الدائم بمقر عمله .. فقد أضاف لأعبائه عبئا جديدا ، هو مسئوليته تجاه هذا الطفل الغر ..

هل يقوي " صابر " يوما علي البوح بهذه الذكري لمن له قلب معلق بعشق الجرحى والمهزومين .. هذا ما تركه الضابط الفتي " إسماعيل أمام " من اثر في نفس " صابر " نديم الاستراحة .. وبالرغم من ذلك فإنه قبل أن يغط في نومه صارح نفسه بهذه الحقيقة: " صحيح أنه قد أسرنا بحبه إلا أننا قد نسينا - في غمرة التواصل - أنه مجرد عابر سبيل يجب أن يحمل بالهدايا .. قبل الهموم .. " .

يقول الولد " عزت بلية " لنفسه ، ولا يمل تكرار ما يقول لأختـــه ولأبيه وأيضا " لصابر " وآخرين .. هذا الضابط رجل طيب لم أر مثلــه فغيره يطاردوني بشكلهم الصارم بين شوارع وأزقة حي شـــبرا ، بـــل أنهم يزعجوني في أحلامي .. وهذا الرجل ينقدني شلنا بأكمله مقـــابل جرنال لا يتعدى ثمنه ثلاث تعريفات .. ولا ينسي نصيبي مـــن الكيـــف فيناولني سيجارة بين أونه وأخري .. لكنه دائما يميـــل للعزلـــة عـــن أقرانه ، وتراه يدخن ، ويسبح بوجهه في فضاء غائم كأنـــه لا يحـــس بوجود الآخرين .. ولا يشاهد كيف تمتلئ الاستراحة كغرزة في مولد .. ثم تنفض من حوله .. بل أنه لا يتابع سرعة تنقلاتي بيـــن أتوبيســـات السويس أو القاهرة ، ولا يراقب قفزاتي السريعة الموهوبة من النوافذ والأبواب ، لدي تحركها .. لماذا أحاول لفت نظره !! .. لقد سبقني في هذا .. ولفت نظري إلي تفرده ونظراته المتأملة الســرحانه .. عندمـــا أقبل وأجده علي هذا الحال أرفع أصبعي في وجهه علي هيئة طبنجه .. وأصرخ فيه .. قف عندك يا رجل .. فيصطنع الخوف والدهشة ويرفـــع يديه إلي أعلي .. علامة الاستسلام .. فأرمي أحمالي علـــي طاولتـــه وأقول هاك جرائدي ومجلاتي .. يطالعها كلها في لحظات ، ويخيل إلـــي أنه لا يترك حرفا إلا ويقف عنده .. كأن له عينا سحرية تطلعه علـــي خباياها .. ثم بعد ذلك أراه يبش لحظات وينبهر أخري .. ثـــم يختـــار واحدة صحيفة أو مجلة .. وينقدني ثمنها أضعافا .. يفعـــل كـــل ذلـــك بكلمات تقطر ألفة وود لي .. لكن ما لا أفهمه ذاك الصمـــت والحـــزن

البادي عليه دائما .. لعله يواجه مشكلة في عمله أو بيته .. مثل " عم صابر " .. الخلاصة أني أحبه .. ولا أريد أن أفارقه ، وقد سألته كثيرا .. إلي أين تمضون بعد ذلك .. إلي السويس .. هل تأخذوني معكم .. أنا أعرف الطريق ، وأريد أن أكون بينكم .. لأشهد ما ستفعلونه .. بيتنا " بسيدي الغريب " حامي السويس .. قريب من ميدان الجامع .. لا تخف علي .. أعرف كل حارة ، وكل شارع بها .. ووالدي لم يعد يسألني أو يلومني علي غيبتي .. لأنه لم يعد قادر علي السؤال ، فهو مريض ويجلس مشلولا أمام الورشة طول النهار .. لا عمل له ، ولا يكلم أحد .. وأختي " الأوسطي رابحة " هى التى تعمل كل شئ .. الناس يقولون مسكين الرجل سيقتله الحزن علي موت أبنه .. ويقولون عن أخى " ثروت " الذى مات في الحرب أنه استشهد وسيدخل الجنة .. أريد أن أكون مثله ، حتى يحزن علي .. ألست أبنه أيضا .. آه .. سيحزن علي ويحبني ولا ينساني كما لم ينسي " ثروت " .. بدلا من أن يقول لي – كلما رأي وجهي – أنت ولد لا فائدة منك ، وسوف أموت قبل أن أجعل منك رجلا .. أقول له كل هذا .. لكنه لا يجيبني ، ويكتفي بالاستماع .. فقط يبتسم لي أحيانا .. وهذا ما يغيظني منه .

" إسماعيل إمام " يعتبر حياته مجموعة من الحقب .. كـل حقبـة تسلمه للتي تليها .. في تمهيد خاطف .. يجعلـه يرهـب الاستسـلام لاحضان الحقبة المقبلة .. ويظل في حالة أشبه بعملية انسلاخ ثقيلة .. تبدأ – أبانها – علاقاته الجديدة فى نمو تدريجي بطئ يثير الضجـر .. لعله مرض .. لكنه ينتهي بتمـام الـدورة .. واسـتقرار واسـتحكام العلاقات وذوبانه فيها بطريقة تنسيه مفاجآت الرحلة .. التى لم يقـف بعد علي محطتها الأخيرة .. عموما هو من ذلك النوع مـن النـاس ، الذى يجيد عيش اللحظة الآنية بعمق .. متأثرا بما مضي .. غافل عمـا هو آت .. لذا فإنه يغترف اللذة لو أتيحت – علي ندرتها – بانتشـاء ونهم .. في نفس الوقت الذي يستسلم فيه لصروف الأيام والمحـن .. إذا حلت – دون شكوى – إمعانا في سبر غور الألم ، بنفـس درجـة الالتذاذ .. ثم لا يني عن المقاومة المستمرة ، بشغف حقيقـي لطعـم الأيام المر .. وفي تحليله هذا ، عن له كثيرا أن يربط بيـن مواقـف الوطن في شمولها ، وبين أخص خصوصيات النفس .. التي لا يجـرؤ علي الاعتراف بها .. أليس هو جزء من الكل .. أنه بعد أن تستوي له اللحظة .. ويغرق فيها بكامل جوارحه .. لا يتبقـى لـه مـن القديـم سوي بعض الذكريات ، تتجاذبه ما بيـن لسـع جـروح لا تندمـل .. ورغبات وأحلام لا تكتمل .. وكلاهما عذاب .. لكنها عذابات مطمـورة – بحنان – في أغوار سحيقة ، يلذ له اجترارها بينه وبين نفسـه .. ولا يطلع أقرانه إلا علي ما هو جميل فقط .. بل أنه قد يعمد أحيانا لأن

يلصق ، وجها آخر ، لكل ما هو قبيح .. لكي يبدو مقبولا .. آه .. هذا بعينه هو الالتذاذ بالألم .. ياه .. راجع نفسه طويلا ، قبل أن يصارحها بأنه نوع من المرض يسمي " الماسوشية " .. جفل .. أبعــد الخــاطر الأسود .. واستعرض ما اعتراه ، علي مدي سني حياتــه .. فوجدهــا فعلا ، لا تخرج عن كونها مجموعة حقب لا يربطـــها ربــاط واضــح قوي .. سواء علي المستوي العملي ، أو علي المستوي العـــاطفي .. عفوا .. هو يجنح هنا إلي وضع الحدود ، والفواصل بين العـــالمين .. برغم إيمانه المطلق ، بأن الحياة ، هى الحياة ، بوجهيــها .. العملــي المادي .. والعاطفي الروحي ، وأن كلا الوجـــهين واحــد .. يؤثــر ، ويتأثر بالآخر .. لكن الحقبـــة اللامعقولـــة ، التـــي يعيشـــها الآن .. والمطبقة علي شرايين قلبه وعقله .. أبرزت الفواصل بطريقة لا يمكن تجاهلها .. بلا مقدمات ، وفد إلي ذهنه ، رأي قديم لكاتب يقــول : " أن الحب شئ في حياة الرجل .. أما بالنسبة للمرأة فهو كل شئ " .. كــان قد استرعي اهتمامه ، لفترة .. ثم أسقطه من حسابه ، باعتباره مجــرد رؤية ذاتية ، لا تنسحب إلا علي حالات بعينها .. ومعني هذا القــول .. أن عالم الرجل يحوي الحدود والفواصل بشكل واضح .. بين ما هــــو عملي ، وما هو عاطفي .. ياه .. ذاك هو الصدق بعينه .. كيف غــاب عنه هذا .. وهو علي الأقل يصدق علي وأحد - مثله - ممن يعيشــون أحداث الحقبة الراهنة .. ويعد أحد معالمها .. وهاك حقبة بارزة مـــن حياته العاطفية .. شكلت وجدانه حينا من الزمن .. وصنعت له نظــرة خاصة للعالم ، والموجودات حوله .. شاء أو لم يشأ .. أصبح يومــا ، ليجد نفسه وقد نأت عنها .. وفقد صلته بــها .. وهــو الآن ، بحكــم الضرورة ، يغرق حتى أذنيه فيما فرضته الحياة العملية من ضــرورات

النضال ، ولم يبق له من حياته المدنية .. إلا بعض الملامح الباهتـــه عن الليالي والأصدقاء .. وندوات الأدب بقصر ثقافـــة المنصــورة .. وعلي المستوي العاطفي ، بات يشهد أمام عينيه أفول حقبه بعينـــها – كانت عزيزة عليه .. رغم حرارة الرسائل التى ترد إليه ، بيـــن حيـــن وآخر .. فلقد وفد إلي الجبهة – في أعقاب النكسة مباشــــرة – وهـــو يحس دبيب الفشل ، وقد بدأ يزحف علي علاقته " بفريدة " أبنه الحـــاج " زاهر خليفة " رجل الأعمال .. وبالرغم من فداحة الخسارة الوشيكة.. إلا أنه استسلم لإرادة أهله في تزويجه إياها .. كآخر أمل له في ســـير غور الأرض التى يقف عليـــها .. تـــرك لـــهم التصـــرف .. وبـــدأت الاتصالات من جانبهم .. إلا أنهم ، عادوا بخفي حنيـــن .. ويبـــدو أن والدته .. لم تصدق ما رأت .. ولم تشأ أن تصدمه .. وقتها قالت له :

– يبدو أن الأمر في حاجة إلي أن تزورهم أنت بنفسك .. كما كنت تفعل في الماضي .. ما الذي جعلك تنقطع عنهم طيلة هذه المـــدة .. لا تسئ الظن يا ولدي .. أنهم أناس طيبون .. ولا تنسي أن والدها أبـــن خال والدك ، وصديقه الروح بالروح .. ومهما كان ما هم فيـــــه مـــن نعمة .. فإنهم لن ينسوا أصلهم ..

وفي موقف كهذا شاءت أن تذكره بتلك المفخرة التـــي لا تفـــارق ذاكراتها :

-- رجل الأعمال ذاك جاء عليه يوم .. لم يكن يحتكم إلي مليـــم .. وعند وفاة والده " إبراهيم خليفة " .. الذى هـــو شـــقيق المرحومـــة جدتك .. ترك الأولاد في رعاية أختـــه الوحيـــدة " زاهـــر " الأكـــبر ، والوسطي " شفيقة " والصغرى " سعدية " .. وقد ربتهم العمة وســـط أبنائها ومنهم والدك ، أحسن تربية ، إلي أن زوجت البنتيـــن .. ولـــم

يشأ " زاهر " – بعد أن كبر ، وترك المدرسة – أن يعمل كفـلاح مـع أبنائها ، وفضل العمل في كامب الإنجليز بالإسماعيلية .. وبفضل مـا أغدقوه عليه ، وما هرب به ، من عاديات وبضـائع .. أصبـح ذلـك " الزاهر " الذى يبدو أمامنا في كامل أبهته ، وهيلمانه .. أنه لا ينسـي ذلك .. لأنه أبن أصل .. لذا فإنك تراه إلي اليوم ما زال يبقـي علـى علاقته بنا .. و لا ينى عن زيارتنا في المناسبات .. حتى بعد أن نقـل أسرته من " السنبلاوين " إلي " المنصورة " .. وأيضا لا تظن أن بعـده هذا كان زهدا في عشرتنا .. لقد اتسعت أعماله .. اللـهم لا حسـد .. وأيضا عيون الناس هنا ، وأقاويلهم .. أنهم لا يتركون أحدا في حاله.. البعد عنهم غنيمة .. أتذكر آخر زيارة لـهم .. وقتـها أخـذت أنـت الأولاد ، وطفت بهم بين الحقول .. شويت لهم " كيزان " الذرة علـي رأس الحقل ، وعادوا فرحين .. وقتها قالت " فريدة " .. انـها كـانت نزهة تطيل العمر .. أحسن من "الميرلاند" .. ولا تنسي أيضا أن خيرنـا عليهم إلي اليوم .. ما زلنا نمولهم بالخبيز الفلاحى ، والفطائر واللبـن والجبن والبيض .. دون مقابل .. خير ربنا كثير .. ما زالوا يطلبـون بعظمة لسانهم .. وأبيك يلبي عن طيب خاطر .. وكأنهم ما زالوا فقراء ونحن مسئولون عنهم .. زياراتنا لهم تفوق هداياهم فـي المناسـبات النادرة .. وأبيك يفخر به ، ويقول لي " يا سنيه " أنه أبـن خـالي .. رجل ولا كل الرجال .. أبعد كل هذا يرفضونا .. ويرفضوا من ، سـيد الرجال !! لا تسئ الظن يا أبني .. الرجل لم يرفض .. أنه ألمح فقـط ، إلي أنه يريد أن تكمل البنت تعليمها ..

فاض به الكيل .. سمع الحكاية آلاف المرات .. وهاهى تعاد ، في نغمة مواساة .. من فيض إحساس بقرب النهاية .. قال بصوت أقرب إلي الصراخ :

- دعينا من هذا يا أمي .. ماذا عن الأم .. تلك التي فتحت الباب علي مصراعيه أمام نمو العلاقة .. وشهدت صبوتي .. وباركت كل شئ ..

جفلت الأم :

- السيدة " نعمت " .. لم تقل شئ .. أمنت علي قول " الحاج زاهر" .. سألت عنك .. قالت لم لم يأت معكم .. ولما علمت أنك بالسويس .. قالت .. ياه .. ضابط مرة واحدة .. ذاك الطيب الخجول .. أريد أن أراه ، في لبس الضباط .. إسماعيل أبني .. ربيته بنفسي .. لم لا تزورهم في إجازتك المقبلة ..

غاب مع ذكريات تلك الحقبة البعيدة ، أيان كان طفلا ، يلهو بمنزلهم القديم " بالسنبلاوين " وقتها طلبته " نعمت " زوجة الحاج " زاهر " بحجة إعطائه دروس تساعده علي إمتحان الشهادة الابتدائية .. وكان ذلك ستارا لشغله بإحضار طلبات السوق .. وتوصيل عمود الغذاء للحاج بمتجره .. وكذا اللعب مع أطفالها لشغلهم عنها أثناء قيامها بواجبات المنزل .. ونادرا ما كانت تساعده في دروسه ، لأنها كانت لا تحسن فك الخط .. وبقلب طفل شعر بعمق الإهانة .. وأنهي تلك الفترة بحادث لم ينساه .. حيث اشتبك مع أبنها مجدي الذى يصغره بكثير - في عراك ، وأشبعه ضربا .. ثم سرق أحد لعبه واختفي .. وعندما شكت لأمه ذلك الحادث وأفهمتها أنه ولد خائب .. لا يذاكر دروسه .. أظهرها علي حقيقتها ببراءة طفل .. وحنقت الأم

عليها .. لكنها لم تشأ أن تظهر له ذلك .. واكتفت بمنعه من الذهـــاب إليهم .. وكان ذا آخر عهده بمنزلهم القديم " بالسنبلاوين " ثم عـــاود الظهور بينهم "بالمنصورة" بعد تخرجه .. على أثر زيارة عـــابرة قـــام بها ، في غضون أول عمل له بقلم قضايا الحكومة بالمدينـــة .. وقـــد شاهد حال غير الحال .. فيلا بحديقة فيحاء بأرض " توريل " .. وامرأة على حالها لم تتغير فيها اللهجة ، أو السلوك .. منسحقة تحت أقـــدام جيل لم يره .. أو بالأحرى سمع عنه .. شاخت قليـــلا .. لكـــن آثـــار النعمة ، تشعل كافة خلاياها بالرضا والحركة الدؤوب .. يساعدها طفل مدرب ، يلبس جلبابا بلديا ، ملفت للنظر ، عرف أنه أبـــن البـــواب ، ورأي فيه طفولته .. وزوج غائب بصفة دائمـــة .. يتـــابع أعمالـــه ، بأرض الله الواسعة .. كبر " مجدي " ، وأصبح رجل أعمال كوالـــده .. تزوج وتركهم للإقامة في القاهرة .. وخلت الفيلا معظم الأيام لـــها .. ولذلك الجيل الذى لم يزل بمراحل التعليم المختلفة .. " فريدة " طالبـــة بكلية التجارة .. وكانت في أول مراحل التفتح والنضـــوج .. وثـــلاث ذكور متدرجون في العمر ، والسنوات الدراسية .. اســـتقبلته الســـيدة " نعمت " بحرارة ، وعرفته بأبنائها .. وأطلعته على مهارات ،ومواهب كل منهم .. هاك " فريدة " تقرض الشعر .. وذاك " خـــالد " رســـام .. " وحسام " رياضي .. " وهيثم " يهوي التجارب العلمية وأبيه خصـص له حجرة لتكون معملا له .. والكل يرضخ لأوامرها ويعرض عليـــه ، باستحياء جانب من انتاجه .. ألا " فريدة " فقد أحمر وجهها خجـــلا .. ورفضت رفضا قاطعا أن تلقي على أسماعهم قصيدة ووعدت بإطلاعـه علي قصائدها فيما بعد .. ولم يغضب الوالدة موقف ابنتها ولم تشـأ أن تزيد حرجها .. بل قالت بسعادة : " هكذا البنات لا يقوين على مثل هذه

المواقف " .. ووجدتها فرصة للإفاضة في مـــدح خلقــها ، والإشــادة بنبوغها .. وكأنما كانت تضعها تحت هالة من الضــــوء لكــي يراهــا بوضوح .. وعجب لإصرارها علي إظهاره علي معظم مواهب البشـوية البادية علي أبنائها .. لعلها كانت تريد أن تقول له .. " هـــاك تربيتـــي التى رفضتها فيما مضي " لكن طيبتها ، ومعاملتها له علي ســجيتها .. جعلاه ينحى ذلك الخاطر جانبا .. لقد كان الاحتفاء كبيرا – أكثر ممــــا توقع – ودعى إلي الغذاء معهم .. وعلي المأدبة .. كانت لا تمل تكرار هذه العبارة ، وهى تضحك : " هاكم قريبكم .. ربيته بيدي تلــك وهــو صغير " .. ولم يجد في قولها غضاضة .. ووجد في " فريدة " ضالته .. كان أحيانا يختلى بها – في دروب المسكن الواسع – وتهئ لــــهم الأم الفرصة عن طيب خاطر .. حدثها كثــير عــن الأدب الــذي يحبــه .. وأطلعته علي كراسة أشعارها .. وأدهشه أن القصائد بالرغم من أنـــها أقرب إلي الخواطر الشعرية إلا أنها تحمل نضجا يفوق سنها .. وقــــد رأي أن معظمها تغلب عليه مسحة رومانسية حزينـــــة ، والموضــوع واحد .. هو الحب فآثر أن يفهمها أن للحب وجه آخر أكـــثر واقعيــة أدركه شعراء غيرها .. فعلق علي كراستها بجزء من قصيدة للشـــاعر " صلاح عبد الصبور " :

" الحب يا رفيقتي ، في هذا الزمان ...
كالحزن ، لا يدوم إلا لحظة البكاء ...
أو كالشبق ...
الحب بالفطانة اختنق ... "

ساق التعليق ليكون بمثابة نقد مهذب لا تجاهــها ، وكـذا شـحذ وإيقاظ لروافد أحاسيسها كى تصب في نهر عالمه المتـأجج .. وكـانت بداية شرارة أشعلت نيران حب ، دام أمد من الزمن .. ثم اعتراه الفتور بعد أن وقف عليه الوالد ، وأعلن عليه حربا خفيه – لا هوادة فيـها – لم يقف لها علي سبب واضح .. دامت إلي أن وقعت أحداث النكسـة.. واستدعى للخدمة .. مشاهد تجر بعضها بعضا لا يوقفها إلا صوت الأم :

– مالك ساهم هكذا !! .. لم تجبني أتزورهم الإجازة المقبلة .. هـل أعطيهم خبرا بذلك .. الست " نعمت " في شوق لرؤياك .. مـاذا أقـول لها..

تنبه لنفسه .. قال دون أن يقصد :

– حسنا زيارتي لهم تكون اليوم الخامس من الشـهر المقبـل.. موعد إجازتي..

وجاء موعد المواجهة .. توجه لتوه إلـي " المنصـورة " دون أن يخلع لباسه العسكري ، وكله أمل أن يستقبله الجميع .. كمـا أفهمتـه أمه .. خاب ظنه .. لم يجد في انتظاره سوي " مجدي " الابن الأكـبر.. وكأن الدار قد خلت من ساكنيها .. وتركتهم السيدة " نعمت " وحدهـم – طيلة المدة – بالصالون بالدور الأرضي .. وغابت لأعمالها .. لم تشـأ أن تطل عليهم بوجهها ، ولو مرة .. وكأنها كانت تخشى شـيئا .. تـأمل " مجدي " بإمعان .. لم يجد فيه ذلك الطفل المدلل .. الذي ضربه يوما .. بـل وجد رجلاً عركته الأيام .. بعد تمام الفحص والمعاينـة .. وقـف علـي حقيقة أزعجته .. حدث نفسه .. " ياه .. هل كبرنا إلي هذه الدرجة "..

لم يطل " مجدى زاهر " حديـث المجـاملات .. رحـب بعبـارات مقتضبة .. ودخل في الموضوع مباشرة :

- ألا ترى معى أن الشهادة أفيد للبنت من الزواج ؟..
- وما في هذا .. سأنتظرها حتى التخرج..
- أريد أن تفهمني بروح شاب مجرب..
- أنا أحبها .. وهى تريدني .. أسألها بنفسك..

بروح رياضية .. بدأ "مجدي" يظهر حنكته :

- دعنا من هذا .. نحن لن نأتى لها بعريس أحسن منك .. ألا ترى أن العجلة في هذه الأمور شغل لها .. وقضاء علي مستقبلها .. هى ما زالت صغيرة ..

- أضمن لك ألا أفاتحكم في أي إجراء قبل تخرجها .. وإذا أردت ألا أزوركم حتى لا أشغلها عن مذاكرتها ، فعلي الرحب والسعة .. فقط تكون لي..

- إذا كنا قد وصلنا إلي هذه النقطة .. فسأحدثك بصراحة .. وأرجو ألا تفهمني غلط .. لنفرض .. أن لك أخت مثلي .. وتقدم لها شخص في مثل ظروفك .. أعنى تجنيدك في مثل هذه الظروف .. وأمامه حرب مقبلة، ولا تعرف إلي أين تنتهى .. هل ترضي أن تربط مستقبلها ، بمستقبله .. لا تؤاخذني .. أنت الذي أردت ذلك..

إلي هذا الحد تكون نظرة البعض لنا .. وأنا من كنت أزكي نفسي بتلك الميزة ، وأعدها ملاذ فخري .. وهاكم أنا قد جئتكم بلباسي وأنواطي .. ألا يكفيكم ذلك .. لعن الهفوة التى ساقته إليهم .. بلغ أوج الانفعال .. صرخ بيأس وألم :

- لا أرفض..
- هاك .. قلتها بنفسك..

في تلك اللحظة أطلت امرأة من باب الصالون .. مظهرها بادي النحافة .. تصر خصرها في سروال " جينز " بالغ الضيق .. مرسومة بعناية بكافة مساحيق التجميل ، كتلك النساء التى تري علي صفحات المجلات الملونة " كموديل " .. كانت رائحة الطيب تفوح منها علي بعد .. انثنت بدلال لتظهر استدارة ردفيها الضامرتين .. مستندة بمرفقها علي أقرب مقعد .. كانت زوجته .. قالت :

- مجدي .. العربة جاهزة..

- خلاص يا نجلاء انتهينا .. قولي لهم يعدون الحقائب..

ثم التفت إلي " إسماعيل " مادا يده :

- بعد أذنك..

وانصرف..

كان يظن أن فشله في الحب هو نهاية العالم .. وهاك هو الآن يعيد قراءة آخر رسائلها بإحساس فاتر تماما..

المنصورة في أول أغسطس سنة ١٩٧٢ م .

بطلي " إسماعيل "

لم تعد تطل علينا كسابق عهدك .. لا ألومك في هذا .. لكنك تعرف أن ما جري لا دخل لي فيه .. كما أنه لا تربطني أي صلات بخطيبي سوي أنه أبن عمتي .. لن أصفه لك .. فأنا لا أعرف شكله بالتحديد.. أسمه " فايز الشلقاني " .. اجلس معه في حراسة الأسرة بأكملها.. الأصول تقتضي ذلك .. لا يحدثني مباشرة .. بل يحدثني بالشفرة .. وهو يعول علي ذكائي كثيرا من هذا الناحية .. فتراه يوجه كلامه لناحية أخرى وهو يعنيني .. الكلام في أي موضوع ، ولأى شخص غيري.. حتى ولو كان الولد " عرفة " الشغال .. يطيل الحديث عن نفسه

ونجاحاته .. وصولاته وجولاته ، حتى حصوله علي الدكتوراه وكـذا لا يمل الحديث عن جمال ونظافة ونظام بلاد بره .. وكذا حـلاوة وذكـاء نسائهم لكن سبحان الله الواحدة منهن عليها غبرة من برود .. لا تجعلك تنجذب إليها أبداً .. تصور يا " إسماعيل " .. لم أكن أعرف أن لي أبـن عمة بهذا الذكاء والنجاح .. حتى عاد من البعثة .. زارنا مرتين .. الأولى بحكم القرابة .. والثانية بحكم أنه افتتح عيادة قريبة منـا .. ثـم كـانت الثالثة فصل الختام .. كل هذا لا يعنيني .. أراك تمهد لتـهجرني .. فقـد انقطعت رسائلك زمنا .. ولا أعلم ما الذي يمكن أن يحدث لي لـو أنـك فكرت في هذا .. كيف تكون الحياة .. لا " يا إسماعيل " .. الحب أقـوي من كل الظروف .. سوف تنتصر عندك .. وسأنتصر أنا هنا علي كل شئ .حتى إذا ما حدث المستحيل ، وتزوجته .. ألا يمكن أن نبقي أصدقاء..

" إسماعيلي " .. سأرسل لك قصيدة جديدة عن الفارس الذي غاب.. اكتبها عنك .. وبالمناسبة أرجو ألا تقسو في نقدك كسابق عهدك..

حبيبي سمعة..

كل سنة وأنت طيب مقدماً .. وعيد ميلاد سعيد .. ألا تفكر في أجـازه تقضيها بيننا بهذه المناسبة .. أتذكر آخر مرة احتفلنا فيها سويا بعيـد ميلادك هنا .. وقتها أخذتك للشاطئ المواجه " الكازينوا النيل " .. ركبنـا قارب صغير علي غير رغبتك .. ولا أعرف ما الذي كنت تخشـاه !!.. أكان هو الخجل ؟! .. أول مرة أصادف رجلاً يخجل ويخشـى نظـرات الناس .. وقتها جرفتك إليه بحمية أثارت دهشتك .. كنت تقاوم ، وتسوق لي الاعتذار تلو الاعتذار ، وتقول لي : " زهقت من منظر المياه .. أنـا قابع من زمن علي شاطئ البحيرات أجاذب المياه والأسماك أطراف من أشواقي .. ولا مجيب .. أنت أيضا لا تمل الحـديث عـن نفسـك وعـن

أصدقاء الجبهة .. ماذا تركت " لفايز " .. عش لحظة من لحظاتك الخوالي يا جبلاوي .. كنت تصارع ما يدور بنفسك ، ولا تفصح .. فقط تـــتراجع والقارب يشدنا لغياهب الموجات الراكدة .. وحدثنا صـــاحب القـــارب - بعبارات كثيرة - عن الرزق الذي يحب الخفية .. وكنت أنزلق معه فـــي مداعبات جريئة .. لكي أغيظك .. جعلته يتجرأ علينـــــا ، ويثـــب - دون مقدمات - إلي مزالق خصوصياتنا ، ويتنهد دون حرج..

- زمن يا أولاد !! .. هل كان يجري في تصوري أن أقود قـــاربي هذا لاثنان من العشـــ .. ثم يتوقف .. ويقهقـــه بخبــث لتكمـــل نظراتـــه المعنى .. " من العشاق " .. أخيراً أرسل لك هديـــة ألـــف مليـــون قبلـــه مطبوعة بشفاهي علي هذه الورقة وعهدي ألا أنساك..

" فريدة زاهر "

بنت الأكابر ، تحاول أن تلهو بعواطفي .. من فوق فراشها الوثير.. ها قد ضمنت الزوج ، ولم يبق إلا العاشق الولـــهان .. عـــاش زمـــن الحرب، فقد قضى علي آخر أمراضنا .. لكنه ألم الفراق .. الذي لم يـــزل يناوشني - بين أن وآخر - بتأثير لسع تلك الرسائل .. والذي جعلني - حتى اليوم - أصر علي أنه ما زالت لي حبيبـــه - مثـــل الآخريـــن - وأعيش علي ذلك الأمل .. لكن من هى !! .. الآن لا أعلم .. الحب وطـــن وأمان ، يؤوب العاشق إليه لحظة الخوف .. أما أن يـــأتي الطوفـــان.. وترى نفسك وحيداً .. لا يصنع مصيرك سوي لحظة .. مكتوب عليـــك أن تسير غورها .. تعيشها بعمق .. فذاك هو حالنا .. وما فعله زمان الحرب..

حقبة أخرى ترد إلي خاطر " إسماعيل أمام " .. تجتاح ما سبقها.. رغم آلام الذكري .. حقبة جافة محايدة .. العواطف فيها لون من الترف، الذي لا طائل من ورائه .. أكدت له أن الحياة بالنسبة لأمثاله ، هي اللحظة .. لذا فإن عليه أن يعيشها بكامل أبعادها .. وليذهب ما عداها إلي الجحيم .. أمثاله لا يجب أن ينظر لأبعد من موطئ قدمه .. فهاك هو قد وفد إلي منطقة " الجفرة " ، منقولاً من وحدته السابقة كتيبة مدفعية الميدان المرابطة بمنطقة " العوايد " بالسويس .. إلي وحدته الجديدة.. كتيبة صواريخ الميدان .. نفس المهنة .. إلا أنه كان يعاني حال نقله من إحساس بالوحدة والفتور .. الحركة بركة كما يقولون لكن قسوة عملية الانسلاخ من بين رفاق السلاح .. لعشرة دامت أمدا بحلوها ومرها.. أتت بمفعولها .وثمة أسباب .. لا تقل في أهميتها .. لم يشأ أن يصارح نفسه بها .. فإنه كان قد فقد ميزة كانت تمنحه إحساس بالزهو علي أقرانه .. ممن يلقاهم – أبان أجازته – بمجالس المقاهى والأندية بالبلدة .. ممن لم يدركهم شرف المهمة .. نوع من الضعف الإنساني .. تلك ميزة كانت لا تعدو مجرد كونه علي خط المواجهة مع العدو.. حيث لا يكاد يمر شهر دون التلاقي بقذائف الاستنزاف .. بل والعبور بمصاحبة مجموعات محدودة ، من المشاة أو القوات الخاصة ، أحيانا .. كانت مجرد لفته بسيطة ، تصدر من أحدهم ، حال تقديمه لجليس لا يعرفه :

– كابتن " إسماعيل أمام " .. ضابط بالجبهة .. "

.. تشيع في كيانه نوع من الامتنان الممزوج بـــالخجل اللذيــذ.. تجعله يقسم بينه وبين نفسه أن يكون عند حســـن ظـــن الجميــع.. المتشوقون إلي لحظة الخلاص .. وقد ظل بعد نقله يلازمه نـــوع مـــن الإحباط ، يعوق أرادته عن خلق صلة حقيقية ، بينه وبين محتويـــات الموقع الجديد .. وأراحه أن أحداً من المحيطين به لم يحاول كسر طوق تحفظه وجموده .. وعلي مر الأيام أسعده أن يعد ذلك الموقـــف منـــه ، بمثابة نوع من الأدب وحسن الخلق .. ويشاع عنه ، أنه بجانب تعليمـــه العالي ، من أسرة عريقة ، تعرف الأصول .. وهو من كـــان لا يعـــدو مجرد ضابط احتياط ، أبن فلاح من عائلة متوسطة .. كان يلمح ذلك في عيون الآخرين ، لدي مسارعتهم في إسداء خدمة .. أو اجابتـــه عـــن استفسار بسيط .. أما بالنسبة لأقرانه بالبلدة ، فإنه قـــد آثـــر الصمـــت معهم، وكان يكتفي بهذا القول :

– إلي المتلقي .. غدا موعد سفرى إلي جبهة السويس..

.بالرغم من قسوة الفارق – بين الحالين – علي روحه المتحفزة .لم يكن يكذب في هذا .. وكان قد وطد النفـــس علـــي قبـــول وضعـــه الجديد. ومحاولة البحث عن وسائل جديدة للتوائم .. فثمـــة إحســـاس يراوده ، بأن دوام الحال من المحال ، في زمن الحـــرب ، وأن خيـــط واحد ما يزال يربطه بزملائه الرابضين بـــالعوايد .. وأن امتـــداد هـــذا الخيط ، سيقصر حتما .. وسيجد نفسه – يوماً – علـــي امتـــداد نفـــس الموقع القديم .. الجديد .. ويوماً بعد يوم أصبح هذا الخيط يشـــده ، مـــع بشائر خطة التدريب الجديدة .. ومشاريع الوحـــدات المختلفـــة ، التـــي تزلزل المنطقة ليل نهار بقذائفها المروعة..

وكان لا يتواني عن زيارة موقعة السابق بالسويس .. مصاحبا كافة المأموريات المتحركة صوب المدينة ، إذا ما سنحت له فرصة .. حتـــى أن أحداً من أصدقائه القدامى ، كان ما يزال يواصل حديثه وسمره معه .وكأنه لم ينقل بعد .

ويعود " إسماعيل " بذاكرته إلي ذلــك الصبــاح البــاكر .. بدايــة مواجهته الحقيقية لمفردات موقعه الجديد .. كـــان الاصطفـــاف علـــي أوج تمامه .. إيذانـــا للتحــرك لأرض المشــروع ، المتاخمـــة لنطـــاق انتشار الفرقة باتجاه الجنـــوب .. علـــي الناصيـــة المقابلـــه لمحـــور القاهرة / السويس .. كان الضابط النوبتجي لليوم السابق .. ولم تبــق إلا خطوة ويعطي لرئيس العمليات تمام الكتيبة ، والاســتعداد للتحـــرك.. بعدها يكون قد اجتاز أول اختبار عملي للنجاح .. قبل الدوران للخلـف ، تمهيداً للإسراع بالخطوة النشطة .. لإلقاء صيحة التمام .. إلقـــي نظـــره ارتياح علي المركبات المحملة بتنسيق رائع ، بمهمات الجنود .. وكـــذا القواذف الصاروخية ، التى تلمع أدلتها ببريق الصيانـــة .. وبانتشـــاء حقيقي ، كان انعطافه فـــي نصـــف دوره خاطفـــه أعقبـــها بضربـــة كعب ، كان لها دوي الطلقة .. وقبـــل إتمـــام الخطـــو صدمـــه صـــوت رئيس العمليات :

– كما كنت .

أسقط في يده ، وكاد ينكفئ علي وجهه ، لـــولا مـــا عـــهده فـــي الجندية، من مواقف أشد حرجا .. أعاد حركـــة الـــدوران ليكـــون فـــي مواجهة الاصطفاف مرة أخرى .. خذ من هذا كثير .. لعله ليس جـــاداً.. وليس الأمر بأكثر من التذاذ بطعم الولاء ، والطاعة الساري في الدماء الشابة .. لا بل هى الحقيقة .. والصوت هذه المرة جاد في مراجعة بعض

التجاوزات ، التى فاته مراقبتها ، من هول اللقاء الأول .دوي الصـوت الموشح بغلاله غليظة من السخط :

– يا بعكوك .. يا أبن البعكوك .. أنزل..

صوب نظره باتجاه سريان الصوت الصارم .. ليجد رأسا يتحرك – دون مبالاة – علي متن العربة الخاصـة بجماعـة الإشـارة لسـرية اليد .. ثم ينتصب ليرد ببرود ممعن في السخرية :

– البعكوك هو أنت وأمثالك..

وقفز المارق إلي الأرض بتراخي ، وصلافة ، من يستعد لأحـداث بلبله في حائط الضبط والربط المواجه لأعين الجميع .. كان هو الجندي " حسن سعد الدين " سائق جماعة الإشارة .. الذي سمع عنه كل مـاهو غريب – دون أن يصدق – وقد عن لـه أن يمشـي بيـن الصفـوف المتراصة ، بتحد غريب ، ضاربا عرض الحائط بأصول العسـكرية.. لعله نوع من الجنون !! .. الغريب أن أحداً ممـن مـر – المـارق – بجواره لم يطرف له جفن .. وكأن ذا من الأشياء المألوفة لدى الجميـع هنا ، وهو من كان يتوقع الكثير من الهرج والمرج..

بتراشق متبادل .. تقاطع حوار علي نفس الدرجة من الحـدة بيـن أكبر رأس بعد قائد الكتيبة ، وبين نفر من السائقين :

– حبس شهر..

– بل قل عشرة..

– طيب أنتظر محاكمة يا روح أمك..

هز كتفيه عجبا وباستهانة :

– قل ما يحلو لك .. تحت أمرك يا .. ملك..

تراخت أطراف " إسماعيل " .. وأحس بقلبه يذوي بعيـــداً ، رهبـــه وذهولاً .. لم يسبق أن صادف حالاً كهذا .. وهو من كان عمله يقوم علي ألفه وتفاهم متبادل .. أوشك كابوس الفشل ، وخيبة الأمل أن يغـلاه .. قبل تمام السقوط في براثن الذهول ، عن له أن ينقذ ماء وجهه .. شـد من أحبال صوته ، وصرخ بصرامة لم يعهدها في نفسه :

– جندى " على سعد " .. جندى " سيد عبوش " .. أجمع ..

أحس بنفسه وكأن شخص آخر يتأهب لخـــوض معركـــة لاثبـــات الوجود .. وهو الذي يراقبه من بعيد .. كان الصوت الأمر يقبل عليه مـن بعيد ، وكأنه ليس مصدره .. أقبل الجنديان مهرولان .. حاملين الســـلاح في الوضع ميلا .. متأهبين لسماع الشطر الثاني من الأمـــر .. نشـــطت خلايا الثقة بدمه .. حتى أنه نسي من حوله .. وأحس أنه لا يكمل فقـــط أمر رئيس العمليات .. بل أنه في ذات الوقـــت القـــائد المســـئول عـــن الوحدة:

– انصراف لتكونا حرسا علي المذنب .

* * *

وأصبح " إسماعيل " يوما ليجد نفسه بمنطقة مشروع دائم للوحـدة والوحدات المجاورة التى تشاركها المنافســـة علـــي زعامـــة مدفعيـــة الجيش .. وأدرك أن الوقت بكامله مراق علي التدريب بدءاً من الجماعة وانتهاءاً بالمجموعة .. وأن ذا يتطلب شهوراً لا يعرف مداها، وأن كـان قد عرف نهاية برنامج كل مرحلة علي حده .. والتى تنتهي عادة بإجازة ميدانية .. لا تتعدى يومان .. غير يومي السفر ذهابا وعـودة .. عـلاوة علي ما كانوا يحصلون عليه من فترات وجيزة للراحـــة ، لا تتعـدى

الأربع والعشرين ساعة تتخلل مراحل التدريب الشاق بإيقاع منتظم .. حتى لا يعم الإجهاد والفتور ، وأسعده أن يجد وحدته السابقة .. جـاءت من السويس ، لتجاوره بميدان التدريب ، علي مسافة لا تتجاوز أربعـة أميال .. مما سهل عليه عملية التواصل ، والإحساس بأنه مايزل بيــــن أهله .. ولم يفارق بعد رفاق السلاح .. كانت منطقة انتشار الوحدة علـــي مسافة ليست بالهينة بينها وبين استراحة " سيدى الدكروري " ..التـــي كانت تتألق علي مدى البصر " كنقطة إشـــارية " هامـــة ، وذائعـــة.. معتمدة في كافة تدريبات الوحدات .كأحداثي ثابت يقاس عليـه .. وقــد كانت مقصداً للرائح والغادي من الحاصلين علي إجازات .. والـــهاربين من هجير تلك الآونة .. في ساعات الراحة .

* * *

بعد أن استقر المقام " بإسماعيل أمام " .. وطوقته الأحداث ، بمـا لا فكاك منها ، عاد ينظر إلي المنطقة بعين أخرى .. غير تلك اللاهيـــة ، والمشغولة عنها بذكريات قريبة من الجبهة ، كان يري فيـــها طريقـــه الوحيد للخلاص .. راجع نفسه .. هاك هو وقف إطلاق النار وقــد طـال أمده .. بما لم يكن في الحسبان .. شل إرادة الجميع ، وأصبح الكل سواء .في البدء كان يراه البعض ، فرصة لالتقاط الأنفاس ، والتقليل مـــن الخسائر – كأفراد الوحدات المرابطة علي طول الجبهة – ورآه البعض ، بداية شقاء من نوع آخر – كأفراد وحدته الجديدة ، ومن يماثلـــهم ، من البعيدين عن خط المواجهة ، يشاركهم في ذلك كافة العاملين فـــي بناء حائط الصواريخ ، الذي يجري في صمت .

أثناء مراجعة النفس .. أدرك أن هذه الساحة - الجديدة عليه - بالرغم من أنها بعيده ، كل البعد عن التناطح رأسا مع العدو .. إلا أنها في حاجة إلي جهاد ، لا يقل روعة عن ذلك .. وهو التناطح رأسا مع عيوب النفس .. قبل البدء في تصفية الحساب علي الساحة المرتقبة..

لقد سبق أن مر عليه حادث الجندي " حسن سعد الدين " .. وبالرغم من جسامة التجاوزات .. إلا أنه أكتفي منه بما أتخذه من إجراء ، أراح المسئولين .. وحمد الله الذي أعانه علي ذلك الموقف .. ومر الأمر بسلام .وهاك هو " حسن " قد أراح الجميع ، وغاب بسجن اللواء .. تلك هي العسكرية .. كما يجب .. وكما تعلمها .. أنقذت ماء الوجه في الوقت المناسب .. لكن هل ذاك هو الصحيح حقاً ؟! .. هذا هو السؤال الذي أصبح يؤرقه .. وما جدوي أن يسأل نفسه وقد تفكك عري اليقين ...وما أقرب الأيام - إن أجلاً أو عاجلاً - سوف تعيد الوجه المارق إلي الساحة ، يوما ، ليريهم - عند ذاك - ما هو الصح .. وهاك هي الوسائل تسعي إليه تباعا - في شكل وقائع حيه لا يمكن الفكاك من أسرها - قد بدأت تعيد تواؤمه مع تقاليد المنطقة الجديدة عليه .. وعلي الأثر أخذت عقد التحفظ والجمود تنحل - الواحدة أثر الأخرى - علي إيقاع التدريب الثابت .. كان يصحو مبكرا ليمارس مع أفراد الكتيبة تمارين اللياقة بدءاً بطابور اختراق الضاحية .. ثم طابور التمرينات التكوينية الأثنى عشر .ثم الإفطار .وبعده التدريب التخصصي حتى الساعة الثانية ، موعد تناول وجبه الغداء .. وبعدها الراحة ، وتوزيع الخدمات ، ثم طابور الهتاف .. لون من الروتين اليومي كان يؤديه بتفان وإخلاص .. إلي جانب ما أخذه علي نفسه أن يكون محاضراً - وسط تلك الجماعات - وفي كافة الموضوعات الشائقة التى عرفها عن

التاريخ .. وتجاربه السابقة في العبور والمواجهـة .. ضمـن برنـامج التوجيه المعنوي .. كعبء آخر يضاف إلي باقي مسئولياته .. كـل ذلـك أعاد وجهه إلي دائرة الضوء .. لتكمل الصورة .. واحد في الكل .. إلا أنـه لم يعد يبحث عما هو جديد .. كما كان شأنه دائما .. فإنه بـالرغم مـن الجهد المضني .. إلا أن الأمور قد أخذت سمة التكرار الذي يولد الملل.. لم يسلم من ذلك الإحساس بالرتابة .. وكلت روحه بما تراءى له من أن الجميع هنا قد أصبحوا ينخرطون في الوسائل باعتبارهـا غايـات.. وأطبقت غيمة حجبت عن العيون جانباً - لا بأس به - مـن الـهدف الأوحد .. وأصبح للتدريب - الذي هو وسيلة أصـلا - طقوسـا تولـد طقوس أخرى أكثر تعقيداً .. ولم يفلح التدريب العملي مـن الحركـة.. الاحتلال والوثبات .. والضرب بـالذخيرة الحيـة والمخفضـة ، وكـذا محاضراته، في انتشاله من ذلك الاحساس .. إلي أن أتى ذلك اليـوم ، الذي تهامس فيه الجنود عن عودة الجندي " حسن سعد الدين " بعـد انقضاء مدة سجنه .. كانت طريقتهم في ازجاء الحوار الهامس ، توحي بأن ذا من الأحداث الهامة - التى يمكن أن يؤرخ لها - فقـد أحيـط القادم بهالة من التهويل ، أظهرته في صورة شبح ، قادر علي فعل ما يريد ، دون الإمساك به .. وعلي الفور أيقن ـ أن أحداً من القـادة أو الزملاء ، لم يكن يعامله علي أنه من صنف البشر .. وأن هذا النوع من التعامل ، لم يكن صحيحاً علي وجهه .. مـا جـدوي أن يقـف - مـع الجميع - متفرجاً ويدفن رأسه في الرمال !! .. ذاك هو السؤال الحائر، لرجل شاء أن يربط مصيره بمشكلات تلك العائلة ، التى انتسب إليـها حديثا .لذا فإنه قد آثر علي نفسه أن يجس نبض الموضوع بطريقته ، لكي يبدأ أولي خطواته العملية في الالتحام بمشكلات الكتيبـة ، وقـال

لنفسه " إن إعادة ذلك المارق إلي أحضان تلك العائلة ، كفرد عامل .. هو النجاح بعينه ، الذي لا يوازيه نضاله القديم بساحة المواجهة "..

وبالرغم من أن ذلك المسعى يعد عبئا جديداً يضاف إلي باقي همومه ..إلا أنه يحمل في طياته كسبا – لا يضاهيه كسب آخر – وهو الأمل في إزاحة كابوس الرتابة والملل .. ولم يشغله عن ذلك المسعى إلا خاطر واحد .. هو ألا يخذله صاحب الشأن نفسه .. وقد أتخذ لخطواته نحو – المسعى – نسقين .. أولهما ، أن يعيد إلي بساط البحث – صورة المنبوذ – بطريقة أو بأخرى أمام القادة والمسئولين .. ولو علي جناح هذا السؤال المغرق في السذاجة : " وماذا بعد ، أيها السادة "..

وثانيهما ، أن يلتقي بصاحب الشأن نفسه .. ويغازله من بعيد.. ويطارحه الود .. كسبا لصداقته أولاً .. وكلا النسقين بالرغم من صعوبتهما .. إلا أنه يمكن التغلب عليهما بالإلحاح .. والوقت في صالحة .وقد جاءت نهاية النسق الأول بأسرع مما توقع .. فأغلق الباب دونه حرجا .. كان ذلك أثناء جلسة ما بعد الغذاء بخيمة " ميس الضباط " بأرض المشروع .. فقد طرح السؤال علي أسماع القائد علىالوجه التالي :

– بالنسبة للجندي " حسن سعد الدين " .. ماذا بعد ! .. هل يترك هكذا ؟!

– وماذا أنت فاعل !! .. إسمع " يا إسماعيل " .. نصيحة مني .. أنت حديث عهد بنا .. .. لا تعرف شيئا عنه .. نحن أدري منك .. يجب الابتعاد عن هذا الولد .. وسوف أري له أي داهية ، لا بعده عن هنا .. قبل أن يشيع الانحلال بين بقية العساكر..

– عندي الكثير مما أفعله..

- وما شأنك .. هل أنت قائد سريته !!..

لم يرد .. وردد بينه وبين نفسه .." سوف يكلفكم هـذا الكثـير "..
وشاء أن يسير - مكرها - علي درب النسق الثاني .. وقد ترك اللقـاء للصدفة .. لأنه لم يكن يريد أن يبدو في شكل الباحث عن المتاعب حتـى لا يوصم مسلكه بالغرابة ، والشذوذ .. وقد علـم مـن كثـيرين ، أن " حسن " قد خرج من السجن شخص آخـر بـالمرة .. أميـل للعزلـة والانطواء .. لذا فقد تأخر اللقاء عما كـان يتوقـع .. إلـي أن واتتـه الفرصة، في أحد الأمسيات القمرية .. أثناء نزهة لاسترواح نسائم الليلة البهيجة .. توجه لبوفيه الكتيبة لاحتساء مشروب .. وجد مجموعة مـن الجنود تتحلق حوله .. مشدودة إليه، في اهتمام من يسمع بعض نوادره .فقد كانت علامات الدهشة والانشراح بادية علي الوجوه .. قام الجميع باهتمام لاستقبال القادم وأفسحوا له مكانا .. وظل " حسن " جالسا علـي وضعه ، بهدوء من لا يعنيه مكانه القادم ، بين جنوده .. وجم الجميـع لفعلته ، وأنقطع الحديث .. ها قد واتتك الفرصة .. لا تتركـها .. آثـر أن يزيل الحرج متجاهلاً ما حدث :

- أرجو ألا أكون قد قطعت حديثكم..

- لا يا أفندم..

- في الحقيقة ، أنا في شوق لمثل هذه اللقاءات الأخويـة .. لـولا مشاغل التدريب .. فنحن يجب علينا أن نحس بإحساس الأسرة الواحدة .حتى نتغلب علي صعوبات المنطقة .. التضامن في السراء والضراء.. لابد أن يكون شعارنا .. فإنه سوف يأتي ذاك اليوم الذي سيحملك هـذا الجالس بجوارك ليضمد لك جرحا .. حتما سيأتي ذلك اليوم .. أرجـو ألا يغيب عن بالكم ذلك..

بداية متعجلة .. تنقصها الروية والتمهيد .. أكـــان يخشـــى ضيـــاع الفرصة بعد عناء الانتظار .. أنـــها أشـــبه بافتتاحيـــة محـــاضرة مـــن محاضرات التوجيه المعنوي .. التي كان يلقيها .. أبدا لم يكـــن يريـــد أن يبدأ بهذه الحمية .. ألم يكن من الأوجب أن يكون اللقاء عاديا ، يتبـــادل فيه مع الجالسين بعض الطرائف والملح .. إذا شاء أن يزيل مـــا بيـــن القائد والجندي ، من حواجز ، صنعتها الظروف ذاك هو عين الحق..

تردد قليلاً .. أوقف استرساله .. عم الصمت ، الذي قطعه حســـن هـــذه المرة على غير ما توقع :

– يا أفندم ، دعنا من هذا الهراء .. أنظر حولك أولا ، لترى أننـــا مجرد حثالة تأكل بعضها البعض .. أنت نفسك ، ماذا فعلت من يـــوم أن وطأت قدمك هذا المكان .. الفترة التى قضيتها في وجودك ، أظـــهرتني على أنك مجرد رجل منعزل .. يعيش لمزاجه .. فقط تؤدي عملك .. هـــل العسكرية في نظرك، تنفيذ أوامر فقط !! .. أبحث أولاً عن حال الحمـــار الذي تركبه لتوصيلك .. هل أكل .. هل شرب .. هل نام !! .. ثم أفعل به مـــا تشاء ، بعد ذلك .. ولن يخونك .. في البدء كان مظهرك يوحيي لى بغـــير ذلك .. وقلت لنفسي " هاك هو القائد الجاد الصامت " .. ثم .. ثم تبين لـــي أنك من صنف الناس المتطهرين ، الذي يمرون على الجيـــف الملقـــاة على قارعة الطريق ، ويكتفون فقط ، برفع طرف جلبابهم خوفـــا مـــن النجاسة..

قاطعه أحد الجنود :

– عيب " يا حسن " سعادة البيه ليس كذلك .. أنه واحد من أحســـن القادة .. سريته تشهد بذلك .. ونحن لم نر منه ما يؤخذ عليه..

– تلك هي المصيبة .. المؤهلات .. المتعلمون .. من أمثاله لا يـأتون بما يؤاخذون عليه..

– أخرس قطع لسانك..

كادت أن تحدث مشادة ، أوقفها " إسماعيل " برحابة صدر :

– دعوه فإن له أسبابه أيضا .. ورجائي أن أسمعها الآن..

بإشارة استهجان من يده :

– يكفي هذا .. فأنا لا أريد ، أن أعطي المزيد مما يؤخذ علي..

ليس هذا شأن جندي عادي .. يمكن أن يترك لشأنه .. يتخبط وحـده كيفما أتفق .. ما زال وراءه الكثير ، الذي لم يقف عليه واحـد بعـد.. ولعله استراح لما أحيط من هالة الغموض .. قد تكون مقدمـة لمـرض الشعور بالاضطهاد .. آثر أن يثيره ليفيض بالمزيد :

– إذا كنت شجاعا إلي هذه الدرجة .. فهاك أذني حتى الصباح .. قـل ما شئت ، ولك الأمان فقط أريد أن أعرف ما ورائك..

– آسف .. يبدو أنك إنسان طيب .. ذاك ما غاب عني..

ثم أنصرف مسرعا وهو يواري وجهه .. وكأنه خشي أن يسقط فـي براثن لحظة ضعف كادت أن تقهره .. ولم يشأ " إسماعيل " أن يلتقي به إلالماما ..أثناء التدريب علي الوثبات التي تستلزم حملة الكتيبة بأكملها.. وقد لاحظ عليه ، أنه يتعمد الهروب ، من مواجهته ، لدي أى لقـاء.. وانطوت تلك الأمسية في زوايا النسيان .

* * *

أول ضوء .. آخر ضوء .. الوقت لا يمكن الجزم به ، مع حلول هـذه الغيمة الكثيفة . . فقط الميدان خال .. وينطق بالرهبة ، والوحشة .. ليس

به سوي جرار حصيرة قديم .. عتيق .. من الطراز الإنجليزي الذي عفي عليه الزمن .. يجر أحدث " هاوتزر " هذا شئ غريب .. والسائق يحاول صعود منحدر تبه .. لماذا ؟! .. وأمامه وادي ممهد ، لا بأس به .. فقط يحاول .. ويستعمل فتيس الغرز .. ينكب عليه بعنف، كأنه يلاكمه .. فكر أن يقول له .. " هناك وسيلة أخرى .. أمامك المدق يا أعمى .. " .. لم يستطع .. لا يعرف ما الذي شل لسانه .. تجمع حشد من المتفرجين حوله .. أنشغل عنهم بمتابعة المحاولة المستحيلة .. الحصيرة تجذب بمخالبها الغرد المنطرح تحت جناحيها ، برعونه وعنف من وقع في مأزق .. " فتيس " الغرز يزعق كمن يطلب نجده .. دون جدوى .. " الشكمان " الذي أوشك أن يختنق تحت الغرد .. يطلق دفعة من الفرقعات .فتناثرت علي أثرها الرمال ، علي الوجوه القريبة .. يسود الذعر.. وينفض كل منهم الوجه باللطم..

– أبعد قليلا يا أفندم ، حتى لا يصيبك أذي .. الطلقات تتوالى من فوهة الشكمان..

– يا ناس .. ليست طلقات .. انه صوت " الشكمان " المخنوق .. وأنتم الذين أتيتم بهذا الطراز من الجرارات ، التي انتهي عمرة الافتراضي.. باقي الوحدات تستخدم الآن " الزيل " و " الأورال " .. لن أتزحزح ، حتى أنقذ هذا السائق المسكين .. أما أن ينزل من علي الجرار .. وأما أن أجر " الهاوتزر " معه إذا لزم الأمر .. لن أتركه لينسحق وحده تحت الحصيرة .. أنزل يا ولد .. أنزل طب حاسب يا مجنون .. هاك يدي..

انطلقت دفعة أخرى من الطلقات الحية – هذه المرة – تفرق على أثرها الجمع المتحلق .. كل يحاول أن ينجو بنفسه .

– أبعد يا أفندم..

- أبعد يا أفندم .. م .. م..

تعالي الصراخ من كل جانب .. ســـقط الســـائق ، وأنـــهال عليـــه الغرد ..أوشك أن يرديه .. الجرار ما زال دائرا .. السائق يحاول الابتعـــاد عنه - مذعورا - بعد أن مال علي جانبه .. ما زال يوالي زحفه .. حتـــى أطبق عليه

- أبعد .. أبعد .. يا .. يا .. أفند .م .. ند .م..

حاول أن يجري ليلحق بهم .. وجد أرجله معلقة بأكياس من الرمال .تتحرك بصعوبة .. ياه .. آه .. أستيقظ .. سمع أصواتا خـــارج الخيمـــة ، مصحوبة بدبيب هرولة .. هنا و .. هناك .. تتناهي إليه برنين مقبـض.. قام ليتحقق من الأمر .. نظر في ساعته .. الوقت ما زال مبكرا .. تذكر أن اليوم يوافق راحته الأسبوعية .. أنه يوم الجمعة .. ولم يحن بعد ميعـــاد طابور التمام .. الذي يليه الانصراف لأعمال الشئون الإداريـــة .. مـــاذا حدث؟! .. بعدت أصداء الأصوات قليلا .. أستند بظـــهره علـــي حـــاجز السرير الميداني المنخفض .. وجد جسده منهك ، من أثر الكابوس الذي دهمه - علي غير توقع - ويبدو أن ذا كان من أثر إرهـــاق الجرعـــة المكثفة لتدريب الأمس :

- يا خدمة .. يا جندي يا خدمة..

لم يرد أحد .. شعر أن المنطقة ، قد أقفرت من حوله .. ترك المخدع قفزا .. وقد أقشعر بدنه ، برهبة من أوشك أن يسقط - للمرة الثانيـــة - في براثن الكابوس .. وجد نفسه خارج الخيمة .. برداء النوم .. وثمـــة جنديان يتسكعان علي مقربة .. نادي عليهما..

- ما الذي حدث ؟!..

– لقد أطلق الجندي " حسن سعد الدين " دفعة رشاش ، علي العريف " حامد الساهي " .. وأصابه إصابة خطيرة .. الدنيا مقلوبة.. كلهم هناك عن بكرة أبيهم .. هناك .. عند رئاسة الكتيبة..

يا ساتر .. إنه لم يجهز علي نفسه بالانتحار .. لم هذا الخاطر بالذات؟! .. ولماذا يتوقع له هذا المصير .. بالرغم من أنه يبدو في صورة القوي المتماسك .. لعله أثر من أثار الكابوس الممتد .. اعترته هزة أقشعر لها بدنه بالكامل .. سأل :

– هل المصاب لم يزل هناك ؟..

– لا .. لقد تم نقله بالعربة الجيب إلي مستشفي " الرويبقي "..

فكر أن يذهب بنفسه إلي مكان الحادث ليتحقق من الأمر .. لكنه عاد إلي مخدعه .. وقد أوشك علي الانهيار .. هاك " هو حسن سعد الدين " يخذله ، للمرة الأولي .. لم يكن ، اللقاء الأول به بمقر البوفيه، قد أعطاه ذلك الإحساس بالمرارة ، بالرغم من عنف المواجهة .. بل شعر تجاهه ، أنه أرق مما يتصور هو عن نفسه .. وأنه أكثر دراية وإنسانية ، من كثيرين ممن صادفهم .. أقنع نفسه بأن النوم ، هو الحل ،الوحيد لانتشاله مما يعانيه، من إحساس بالفشل .. وتضارب في الأفكار القاتمة .. وحتى يمكن أن يستعد ليوم حافل .. وتذكر قول القائد.. " ما شأنك .. هل أنت قائد سريته !! " فهدأت روحه .. واستغرق في نوم عميق .

أفزعه رنين التليفون .. كانت الشمس قد غمرت كافة الموجودات.. قام ليلتقط السماعة .. أتاه صوت القائد ، علي الطرف الآخر ، محاط بصوت قرآن الجمعة :

– ألوه..

– ألو يا .. أفندم..

– أخفض صوت المذياع يا ولد حتى نسمع .. تمام هكذا .. أين كنت يا حلال العقد .. لم أراك .. عزرك معاك .. لقد أجهدت نفسك بالأمس .. ألم تعرف بعد..

– لقد عرفت..

– لقد قضي علي نفسه .. قبل أن يقضي علينا .. ها هو من كنت تدافع عنه .. جاءك كلامي..

هذه لهجة لا تناسب المقام في شئ .. علي كل خير..

– يا أفندم .. ماذا عن المصاب ؟!..

– دائما ماذا .. سأسميك " إسماعيل ماذا " .. لقد رجع المسعفون وقالوا أنه بخير وقد كلمهم .. فقط الولد كان في حالة إغماء من " الخضة " .. الإصابة في الفخذ .. ربك ستر .. لكنني منشرح لأنها سوف تقضي علي صاحبك .. دون أي سعي من جانبنا .. حتى لا يظهر في صورة المضطهد .. سبق أن قلت أن هذا الولد مجنون .. ولا أحد يصدقني .. أسمع " يا إسماعيل " .. الباقي عليك يا بطل..

– كيف ؟!..

– أن تتم لنا الإجراءات .. التحقيق الابتدائي .. يعني .. هذا عملك.. ومن صميم تخصصك .. لقد قمنا بما علينا ، وأخطرنا المسئولين .. وأنت النيابة العسكرية ، وأجرت تحقيقا مبدئيا .. وحرزت الأشياء ، وآثار الدماء .. ووضعنا الحرس علي المذنب .. وسوف يكملون الإجراءات آخر اليوم .. بعد صلاة الجمعة .. أريدك أن تنتهي من التحقيق ، الخاص بنا قبل مجيئهم..

– أمرك يا أفندم .

أحضر المذنب ، حاسر الرأس .. شاحبا .. بصحبة الحرس .. وصاح الحكمدار :

- انتباه .

بعد أول سؤال فضل أن يظل مستمعا لأطول فترة ممكنة .حتى يعيد دراسة من ظنوه شبحا..

- أعرف أنك تؤدي واجبك .. وأعرف أنك ستؤديه ، كما يجب ، كعهدك دائما .. لكني لن أحرمك من سماع الاعتراف كاملا ، كي توفر علي نفسك صعوبات البداية .. لكن لابد لك أن تعرف ، أن ثمة ثلاث أيادي اشتركت في إطلاق دفعة الرشاش .. أولها بالتحديد ، يد رقيب أول السرية .. التى بدت بعيدة ، حال الحادث .. وكانت في نفس الوقت أقرب الأيادي للرشاش .. وثانيها يد المجني عليه ذاته .. وآخرها يدي التى لم تفعل شئ سوي الاصطدام بالرشاش القصير لمحاولة إبعاد فوهته عن فروة رأسي .. ولابد أن نبدأ بالأول .. بالرغم من أن يده كانت بعيدة وعفيفة .. كما تبدو دائما .. لقد عدت من سجني .. والتحقت بسريتي .. كان أملي أن تعود المياه لمجاريها .. وآثرت علي نفسي أن أنصرف لعملي فقط .. كما تفعلون أنتم .. وإلا أحتك بأحد .. لكن الرقيب أول ، الذي يكن لي كراهية ، لا أعرف لها سببا واضحا .. وقد رجحت أن يكون ذلك بسبب مراجعتي لأوامره ، التي كان يصدرها لمجرد الإحساس بأقدميته - دون أي غرض محدد - هذا الشخص فرض علي حصارا من المضايقات الميري تمنع التعاون أو التعامل معي.. يساعده في ذلك بعض الجنود ، الذي يخشون بطشه .. الأمر الذي جعلني أحس بإحساس المنبوذ .. وحتى يمكن أن أشعره بأني لا أعبأ بذلك نقلت " الهايك " الخاص بي إلي مكان رئاسة الكتيبة .. ولكنه عاد

لممارسة هوايته في مضايقتي ، وأمرني بالعودة لمقر السرية .. مدعيا أن واجبه يحتم عليه إجراء التمام والتفتيش الدائم علي .. واعترضت علي ذلك .. فأحالني مكتب قائد السرية .. وقد كان .. الأخير من الذكاء بحيث فوت عليه غرضه . فقد سأله :

– هل يتخلف عن الطابور .. أو الخدمات..

وجاءه الرد :

– لا .. فقط أقول..

– لا تقل شيئا .. دعه في حاله..

إلا أنه لم يرضخ لذلك .. وظل يترقب فرصة ليذلني .. وحال عودة العريف مؤهلات " حامد الساهي " من الأجازة المرضي . بعد غيبة طويلة امتدت لشهور .. أرسله لشاركني مقر اعاشتي .. الذي لم يكن يوافق عليه .. ويبدو أنه كان يضمر في نفسيه شيئا .. لأنه يعرف طبيعتي ، وكراهيتي للأوامر ، علي الفاضي ، الملآن .. فأرسل لي من يستطيع أن يفرض أقدميته .. وآثرت أن أفوت عليه الفرصة .. فقبلت الوضع .. واعتقدت أني بذلك قد كسبت رفيقا يزيل إحساسي بالوحدة.. لكني ظني خاب .. وحقق الآخر ، ما هو مأمول منه .. من أول يوم ، وهو لا يريد أن يشارك متاعب الإعاشة .. كإحضار الماء ، أو الطعام ، أو استلام نصيبنا من الترفيه .. أو غسل الأواني .. وظللت أجري عليه كما أجري علي عاجز .. وكنت أقول لنفسي .. " من الجائز أنه ما زال يعيش فترة نقاهة من المرض .. " خاصة وأنه كان أميل إلي الصمت والتحفظ تجاهي .. ولم تفلح محاولاتي لجره إلي عالمي .. ولم يكن من اللائق – وقتئذ – الضغط عليه بمثل هذه المتاعب ، أو إثارة الجدل ، والتفاهات بشأنها .. حتى جاء اليوم الذي شعرت فيه – أني بوضعي

هذا لست سوي جندي مراسلة لهذا العريف .. وتأكد لـــي ذلــك ، مـــن نظرات السخرية التى كان يواجهني بها الزملاء .. فلم يكن يستحي مـــن الغمز لهم بذلك أمامي .. ويوم أتت عربة المياه .. وصممـــت علـــي أن يحضر هو نصيبنا بنفسه .. وحين أمرني كالعادة قلت له :

- أمامك " الجركن " عليك بإحضارها .. ألا تشرب مثلي..

قال لي :

- أتكسر الأوامر ؟..

- لك أن تعتقد ما تشاءه..

وحدث أن تحركت العربة .. دون أن نأخذ نصيبنا من المياه .. كنـــا الوحدين بين باقي الجماعات الذين يجري عليهم مثل هذا الموقـــف.. رغم حرارة الجو ، والحاجة الشديدة للمياه ..وحدثت مشـــادة - مـــن جراء ذلك - تطورت إلي عراك بسيط .. وعرض الأمر علي الرقيب أول الذي أنذرنا مكتب قائد السرية في الصباح لأنه - كمال قال - لم يكـــن يريد أن يوقظ القائد في مثل هذا الوقـــت .. وأمرنـــي - أنـــا صـــاحب " الهايك " ، والذي تعبت في الحفر له وإقامتـــه - أن آخـــذ غطـــائي للنوم لدي الجندي " محمد الشيخ " .. بدعوي الفصل بيننا .. في حين أنه كان يبيت النية لحرماني من جهدي في إنشاء مقر إعاشـــة - خاصـــة بي - بعيدا عن مضايقاتهم ومنحه لمن لم يبـــذل ، أي جـــهد فيـــه.. ولفداحة الظلم ..لم أنم ليلتها .. وصممت علي العودة .. واندفعت مع أول خيوط الفجر ، أخذا غطائي .. متوجها إلي مقري .. ضاربا عرض الحائط بالأوامر الجائرة .. أستيقظ الآخر ، وأمرني بالعودة .. فلم أنفذ .. هددنـــي - تهديدا أجوف - برشاش قصير كان ملقي بجواره .. ولشدة غيظي.. أطبقت علي يده .. وقلت له .. دع الرشاش .. وأثناء الشـــد والجـــذب..

انطلقت هذه الدفعة ، وأصابته .. وهاك تري - أني مثلك - لا أعـــرف كيف تطورت الأمور ، بمثل هذه السرعة بل أني لم أقــف علـــي أيــة حقيقة .. سوي أني أشبعت ضربا أفقدني صوابي..

- كفي .. الشاهد الأول..

رد المساعد الإداري " محمود فران "

- الجندي " حظ السويفي "..

- نعم كنت حكمدار خدمة .. بالقرب من " الهايك .. قبــل السادســة صباحا أثناء تغيير الخدمة سمعت صوت الطلقات .. ذهبت لأســـتوضح الأمر ، وجدت " حامد " مدرج بدمه .. كان يصرخ قتلنـــي .. قتلنـــي.. والآخر يمسك الرشاش بيده .. نعم هو الذي ضربه .

- هل شاهدت الواقعة ؟

- سمعت المشادة .. ثم صوت الطلقات .. وكنت أول واحد يحضــــر الحادث..

الشاهد الثاني :

- جندي " عرفة الأحمدي "..

- كنت خدمة شنجي .. سلمت البرنجي .. نعـــم ضربـــة .. ســـمعت الطلقات .. كان يمسك الرشاش..

الثالث..

- نام عندي الليلة .. وأنصرف باكرا .. وهـــو بـــادي الاضطـــراب والشحوب .. وعجبت لذلك .. هو الذي ضربه .. سمعت الطلقات..

السابع .. الخامس..

- سمعت ولم أر..

كفي .. كفي .. شعر بدوار .. لم ير أحد الواقعة رؤي العين .. آه لـــو كنت المحامي .. هاك هو الكابوس يناوشني من جديد .. حتمــا ســأحكي حكاية الكابوس لواعظ الكتيبة .. الذي يجيد تفسير الأحلام تفسيرا دينيـا .ومؤكد سيقول لي .. مكشوف عنك الحجاب يا ولدي .. وألــف رحمــة تنزل عليك " يا حسن " .. هاك هو الغرد يبتلعك..

– أفندم .. مالك يا ولد يا " حظ " .. كوب ماء من عندك .. وقع هنا يا أفندم .. تمام .. أنتهي .. قم أسترح..

– اسندوني .. لا تقلقوا .. فقط قلة نوم .. و .. إرهاق..

بعد غيبة شهر أنقشع خلاله الكـابوس .. وحلـت مكانـه دوامـة المشروع .. هل عليه الجندي " حسن سعد الدين " ، بمصاحبـة جنـدي حرس .

– انتظار محاكمة .. يا أفندم .. سأقضي المدة الباقية بينكـم .. قـائد السرية لا يريد أن يري وجهي .. ويقول لي أبحث لك عن داهية .. غـير هذا المكان .. حائر بلا مأوي ككلب أجرب .. أتيتك لتنقذنـي .. أعـدك أن أكون الكلب الوفي .. كلم قائد الكتيبة .. تبين لـي أنـك شـخص آخـر بالمرة..

" بالميس " كانت المواجهة الثانية .. القائد يتصـدر المـائدة .. لا يشغله سوي الكتيبة المنافسة .. وذاك الحشد من ضباطـها وجنودهـا النابهين .. البعيدون عن المشاكل خرج عليهم " إسماعيل " بما لم يكـن في الحسبان..

– الجندي " حسن سعد الدين " .. ماذا بعد ؟! .. هل يترك هكذا..

– ها ها ها .. هاى

– للمرة الثانية .. وماذا بعد :

أنتظر نهاية عاصفة الضحك .. ثم فاجأهم :

- أعرض ضمه لفصيلتي..

زجره " محمد لبن " قائد السرية :

- تريده معاون قائد السرية أذن .. أرجوك أبعدنا عن شـــطحاتك..

سريته أولي به .. ثم موجها كلامه لقائد الكتيبة :

- أري أن يبقي علي قوة سريته إلي أن تتم محاكمته..

- وما المانع يا " محمد " أن تأخذوه .. " إسماعيل " هو المســـئول عنه أمامي..

- أذن ليس لي أي دخل..

* * *

وسهر الجندي " حسن سعد الدين " ليلته الأولـــي بـــدون حـــرس بخيمة الضابط " إسماعيل أمام " .. وقد آثر الأخير أن يصرف الحـــرس كأول أجراء عملي لاختبار الأمانة والمروءة .. متخطيا كافة المخـــاوف والظنون .. مكتفيا بما جمعه من معلومات دقيقة عنه .. فقد أشار عليـــه أن يكون تعامله معه مباشرة .. وقال لنفســـه فلنبـــدأ بإشـــاعة الثقـــة المتبادلة أولا .. وليكن ما يكون .. وقد أتت النتائج بما توقع .. لم يشـــأ أن يهرب المذنب الطليق .. وحتى لا يبدو متهورا ، في نظر الزملاء آثـــر أن يبقي علي الحرس بقاء شكليا ، حال التمام .. وقد أنشـــأ المذنـــب " هايك " آخر بجوار خيمة الضابط .. وتطوع لخدمته كمراسلة ، بمحـــض اختياره .. وقد تردد " إسماعيل " كثيرا في قبول هذا النوع من الخدمات ..الذي لم يكن يستريح إليه .. إلا أنه - بعد ذلك - تركه وشـــأنه .. ثـــم أتى وقت فاتحه فيه ، فيما يلزم قضيته ، وقال له أنها تعد فـــي نظـــر

القانون ، جناية شروع في قتل .. لا يجب التهوين من شأنها .. وأشار عليه بتوكيل محامي جنائي نابه للدفاع عنه .. وذات يوم دار بينهما هذا الحديث :

- لقد قر قراري أن أترك لك مهمة الدفاع عني..

- ليست لي خبرة بالجنائي..

- لقد دافعت عن كثيرين أمام المحاكم العسكرية ..وحصلت على البراءة..

- كلها كانت جنايات بسيطة .. مجرد غياب .. نوم في الخدمة .. أما بالنسبة للشروع في القتل ، فالأمر يختلف .. ويلزم محامي ذو خبرة..

- البركة فيك..

- أرجوك لا تغالط نفسك .. أنت تعرف هذا الأمر ليس فيه بركة.. ولا غيره..

- كيف أوكل محامي .. وأنا الآن لا أقبض مليما - من زمن - والله أعلم كيف تعيش أسرتي الآن..

- من هذه الناحية ، لا تعل هما .. سأحاول أن أصرف لك مبلغ من صندوق الخدمة الاجتماعية .. وهو مكتظ بأرباح " الكانتين ".. " والبوفيه " .. وهاك مبلغ بسيط مني..

- كيف أنزل أذن..

- دع هذا الأمر لي .. كلها أيام وتهدأ الحالة .. وينسى في دوامة العمل .. ما أثير حولك .. فقط أريدك .. هذه الأيام ألا تظهر في الصورة.. حتى تعجل بالنسيان .. وعندها سأستطيع أن أجد لك مخرجا..

- شكرا يا أفندم .. وأنا من جانبي سأكون عبدك المطيع .. ولن أخونك أبدا..

- أطمئن .. من هذه الناحية .. أنا أعرف ما أنا مقبل عليـــه .. لـــن أدعك لأهوائك مرة أخري .. بلا غرور ، أســـتطيع الأن أن أحضـــرك ، حتى ولو كنت وراء الشمس .. للآن أنت لم تجربني .. ولم تعرفني حـــق المعرفة بعد..

كان بهذا القول يضع النقط فـــوق الحـــروف .. لقطـــع دابـــر أي فكرة تهور قد تراود المذنب .. ولم يكن الأخير فى حاجة إلي ذكاء قد توقع أن يواجه ببعض المخـــاوف والظنـــون المترســـبة .. كمـــا لـــم يكن علي استعداد لهدم أسوار الأمان .. التى بنيـــت - بعـــد عنـــاء - بأيد خالصة النية .. حتى ولو كلفه ذلك حياته .. قال :

- لست أنا يا أفندم .. وستعرفني أنت أيضا - فيمـــا بعـــد - حـــق المعرفة..

* * *

ترسخت أوتاد الثقة .. بعد أن أقدم " إسماعيل " علي إعطاء المذنب منحه يومين سرا ودون علم المسئولين - للنزول بمصاحبة الحـــرس للبحث عن محامي .. وعاش علي أعصابه فترة غيابه .. بـــالرغم مـــن قصرها .. كان قد حدد ساعة العودة وأكد عليه بالحضور حتى ولو علي محفة .. وقد صدق " حسن " في وعده بعد أن أفني أعصاب " إسماعيل" لمدة ساعة تأخير بسبب المواصلات .. وعند حضوره ، فاجأه بأنه لـــم يبحث عن محامي .. طرح الفكرة جانبا .. وتوجه لأهله ليطمئنهم عليـــه ويطمئن عليهم .. ويخبرهم بالكارثة التي ألمت به .. وحاول خلال المـــدة أن يتصل بقريب له .. قال عنه أنه رتبه كبيرة بمدرسة المشاة .. لكـــي

يبحث له عن مخرج ..أو يوكل محامي من معارفه .. الأتعاب فوق طاقته .لكن الأخر رفض أن يسمع تفاصيل الواقعة متعللا بكثرة مشـــاغله.. وصده بقوله .. أنه يجب أن يتحمل نتيجة طيشـــه .. وبعـــد أن ســـرد " لإسماعيل " وقائع الإجازة .. التي كانت فوق العادة ...وطمست بهجتها معالم الورطة .. قال له :

– لم يبق لي سواك .. أنا أعرف أنك درست كل جوانب القضية من واقع التحقيق .. وأعرف أنك لن تتركني دون دفاع .. وإلا سأكتفي بمـــا ستندبه لي المحكمة للدفاع عني ..

ووعده " إسماعيل " بذلك .. وحتى يقطع الطريق أمام مخاوفه .. قال له :

– عليك أذن أن تتحمل نتيجة الحكم ...وها أنذا قـــد أتحـــت لـــك الفرصة لندب دفاع أكثر خبرة .. ولكنك أهدرتها..

لكن نفسه لم تطاوعه ، فأعاد دراسة القضية من جديد .. ومن واقع ملف التحقيق الابتدائي ...وكذا ملف خدمة الجـــاني والمجنـــي عليـــه الموجودة لدي المكاتب وأخذ كافـــة البيانـــات لمحـــامي زميلـــه مـــع أول أجازه .. وقد طمأنه الأخير بأن القضية أبسط مما يتصور .. وأخـــذ يشرح له إجراءات المرافعة .. والنقاط التى يجب التركيز عليها .. وكـــان بعضها من عند " إسماعيل " .. والبعض الآخر ، مما تفتقت عنه قريحـــة ذو الخبرة .

كانت العربة الجيب تجوب المنطقة بحثا عـن الأمـاكن المناسـبة لمواقع الضربات لسرايا الكتيبة .. صوب قائد الكتيبة نظـرة مريحـة باتجاه "إسماعيل":

– مالك ساهم ..

– لا شئ

– ألم تعجبك الأماكن التي مررنا بها .. لـم نسـمع تعليقـاتك يـا فيلسوف ..

– فقط لا يعجبني اختيارنا للموقع التبادلي .. لي عليه ملحوظات ..

– قائد سريتك موافـق .. ولا تنسـي أننـا مقيـدون بمجموعـة إحداثيات ..

– لم تسمع ملحوظاتي يا أفندم .. الموقع عبارة عن صحـن وادي شديد الانخفاض ، تحوطه مجموعة تباب من كافة الأجناب .. هـو الآن لا غبار عليه .. فهو مستو ، وسهل التجهيز .. طريق الاقتراب مـدق ممهد .. أما في الشتاء فأمره سيختلف ، ستنحدر السيول مـن علـي التباب لتجعله شبه بحيرة .. فقط أخشـى مـن ضيـاع جـهد الحفـر والتجهيز الهندسي ..

– لا عليك يا أبني المكان عبارة عن موقع تبادلي .لن يستخدم إلا عند الضرورة .. قد لا نحتاج إليه .. هو للمناورة فقط .. ولا تنسي ماله من ميزات أخري .. الإخفاء والتمويه جيد .. قد لا نجد هيئـات مثلـها للموقع الرئيسي .. ثم ما أدراك أننا سنشتبك في فصل الشتاء ..

الانتقال مع القادة إلي منطقة " الشلوفه " شئ رائع – حتى ولـــو كان لإنتخاب مواقع لا يعرف متى تعمر بهم – فهي تقربة من المنـاطق التي ألفها زمنا .. وكانت له فيها ذكريات لا تنسي .. بين أفراد وحدتـــه السابقة .. ذكري أول عبور له مع أفراد من القوات الخاصة لاســتطلاع مواقع العدو القريبة .. وكيف وقع عليه الاختيـــار مــن بيــن ضبــاط استطلاع لواء المدفعية بالكامل ليصاحب المجموعـــة .. بـــالرغم مـــن فرحته – وقتها – بهذا التقدير الغالي لكفاءته .. وهو من كان يظن أن أحداً لا يلتفت إليه .. إلا أنه عندما أحس بـــاقتراب الموعـد .. شــعر بالرهبة والخوف وعندما بدأ الإعداد لهذه العملية ذاب فيه .. واندمـــج في تدريبات فرقة القوات الخاصة التي انعقدت لأمثاله .. ومارس ألعاب الجودو ، وأصبح يجيد منها السقطة الأمامية والخلفية .وكـــذا مـــهام الطعن بالسونكي .. وكيفية إلقاء قنبلة يدوية إلقاء صحيحـــاً .. وكـذا كيفية تكبيل أسير وحمله بسهولة ، مهما كان حجمه .. واجتازا امتحان الفرقة بنجاح أنساه رهبة ما هو مقبل عليه ، وجعلـــه يشـمخ علـــي ضعفه .. وعندما حل الموعد ، ووطئت أقدامه الشاطئ الشرقي .. أدرك أن وحدات كثيرة شاركت في تأمين وصول المجموعـــة ... بالتمـــهيد النيراني لشغل مواجهة كبيرة علي طول الجبهة لتعميهم عـن أهـداف المجموعة ، والبواعث الضوئية ، وطلقات الإشـــارة .. التـي يـــهتدي إليها في تقدير صحة الاتجاه .. بقراءة رصدات لها ، بين الحين والآخر – عقول لا يستهان بذكائـــها – جعلتـــه ينفـذ بســهوله فـــي حـــائط المستحيل .. بل يعبر البحر دون أن تبتل قدماه .. وقارن بيـــن جـــهده أثناء المهمة – وبين جهد من أحاطوه بالرعايـــة – علـــي الشـــاطئ الغربي – حتى كللت المهمة بالنجاح ، فوجد أن جهده أقل ، وأن بـدي

ى الصورة أوضح .. وأن كان قد عبر – بعد ذلك – مرتيـــن لمـــهام أخرى آخرها خطف أسير ، كان في طريقه لموقع " تبة الملاحظـــة " ، غافل عما يدور حوله ، ورماه سوء حظه في طريقهم – إلا أن هـــذه المهام أتت بعد زوال الرهبة .. وحفرت المرة الأولي في الذاكرة بكافـة تفاصيلها .. وتلاشت الوقائع الأخـرى ، بـالرغم ممـا أحاطـها مـن صعوبات جعلتهم يلجأون لدروب المخاطرة المحســوبة .. صحيـح أن المرة الأولي كانت قاصرة علي مهمة استطلاع موقع خلفي كان يظـن أنه موقع صواريخ تكتيكية واتضح أنه منطقة شئون إداريـــة لوحـدة مهندسين بها آليات مـن التـي تعمـل بالسـاتر الـترابي المواجـه كالبلدوزرات والأوناش .. والحفارات .. وقد تـم تدمـيره فيمـا بعـد بالمدفعية .. ولم يحدث خلال المهمة أي إلتحام بين المجموعـة وبيـن أفراد العدو .. إلا أنه أثناء تجواله بين مواقعهم ، وإحساسه بأنفاســهم قربه .. دون أن يشعروا به .. أحس بأنه يســير علــي أرض ليسـت غريبة .. ولا تفرق كثيراً عن الأرض التي يقف عليـــها .. وأن هنــاك ثغرات كثيرة بين النقط القوية للعدو ، يمكن النفاذ منها ..

وعاد بذاكرته ، وقت أن كانت وحدته الســـابقة ترابـط بمنطقـة كبريت، قبل انتقالها للسويس .. كانت مواقع المدفعية ، بـــالقرب مـن " جنيفة " ومراكز الملاحظة " بكبريت " .. وكان يحتل بمجموعـة إدارة النيران أحد صهاريج المياه بالمطـار المـهجور .. ويبـدو أن العـدو أكتشف مركز الملاحظة .. وأعتلت دبابـه أحـد المصـاطب بالسـاتر المواجه ، وظلت تصوب نحو الصهريج إلي أن أصابت السلم الحديـدي المؤدي لنقطة المراقبة .. ثـم بعـد ذلـك اخـترقت الدانـات خـزان الصهريج .. فتدفقت المياه كشلال هادر .. وقتها أصابت رأسه شظية ،

ن الخرسانة المتطايرة .. وأسالت دمه .. الأمر الذي أربك جنوده ..
جعلهم في حالة ذعر وهرج .. إلا أنه تماسك ، وربط رأسه بفوطه ..
م طلب الأذن بالاشتباك عبر الخط التليفوني :

– ألوه .. أفندم .. هدف مرئي ، يحاول تدميرنا .. أصاب السلم الخزان .. البيانات جاهزة .. نحن في انتظار الأمر بالاشتباك ..

– ما نوع الهدف ؟! ..

– دبابة ..

فترة صمت ثم :

– نأسف الهدف متحرك .. لا يمكن إصابته إلا بالضرب المباشر ..

في ذلك الوقت سمع " إسماعيل " دوي طلقات مباشرة لمدفع عديم الارتداد لوحدة مشاه مرابطة بالقرب من الشاطئ .. لكن المدفع لم يستطع أصابتها .. كانت الدبابة تنزل من علي المصطبة لتحتمي بالساتر ثم تعاود الظهور في حالة الهدوء وتوالت طلقات الهاون .. من أتجاه نفس الموقع .. دون أي نتيجة تذكر .. كانت الدبابة تنشد الإزعاج .. وآثر " إسماعيل " أن يعيد بالكرة بطلب الاشتباك بغرض الإسكات .. وبعد طول صمت .. أجيب لطلبه .. وبدأ في إعطاء بيانات الطلقة التمهيدية .. عندما واتاه الرد :

– راقب سقوط واحد طلقة ..

أنتظر مرور صوت الطلقة علي أحر من الجمر .. إلي أن سقطت بالقرب من الهدف ، ودون أن تصيبه .. واختفي الهدف خلف الساتر .. الأمر الذي حفزه لإعطاء الأمر بالضرب سويا علي نفس البيانات السابقة .. وانفجرت الطلقات خلف الساتر علي شكل غلالة منتظمة .. سمعت بعد قليل .. دون أن تحدث أثراً .. مما جعله يأسف علي

إصراره علي صيد هدف متحرك .. وقال لنفسه بحسرة .. لقـــد كـــان القائد بعيد النظر .. في تلك اللحظة كانت الشمس قـــد أشـــرفت علـــي الغروب .. وحل صمت ما بعـــد الاشـــتباك .. وفضـــل الاكتفـــاء بتلـــك الطلقات ..

بلغ :

– الهدف أسكت ..

ظهرت علامات الحسرة والآسي علي وجوه جنوده .. وقال لـــهم ، ليقطع الصمت ويزيل الإحساس القاتم :

– هذا نصيبنا ..

لم يعلق أحد فخيم الصمت من جديد .. لكن صـــوت فـــرد خدمـــة الاستطلاع عاد لقطعه :

– هناك عمود دخان يتصاعد من نفس مكان سقوط الغلالة ..

انتتر " إسماعيل " واقفا وكأنه كان بانتظار معجزة :

– أرني ..

ونظر من " البيروسكوب " فوجد خيطا صغيراً من الدخان يتصـــاعد لأعلي .. قبل أن يترك فوكس " البيروسكوب " أنبعـــج الخيـــط فجـــأة ليكون سحابة بيضاء ، في ضخامة منطاد .. برق في وســـطها لـــهب أحمر أحدث دويا ، هز المنطقة بأكملها .. وغمر القلـــوب بـــالرعب .. حيث كان قد قر في بعض النفوس ، ما أشيع عن إمكان حدوث ضربـــة ذرية قياسية .. ثم توالت الانفجارات علي فترات متقطعة ، إلي أن حل الليل فأضاءت سمائه لهب دانات وطلقات مختلفة الألوان والأعـــيرة .. وضع " إسماعيل " نظارة الميدان ، علي عينيـــه ، يســـتعرض علـــي الشاطئ الشرقي للقناه – ذلك المشهد الذي فوجئ بغرابتـــه .. شـــعر

بنشوة جرفت ، في تيارها ، كافة ما اعتراه – في حياتـــه الســـابقة – من عثرات ناءت بها جوانحه .. وقـال لنفســه : " لقـد غسـل هـذا الحادث ، كافة أخطائي " .. وأحس أنه يولد من جديد .. ثم أنسحب إلـى الجهة الخلفية ، و الأجناب .. ليري أثر المشهد علي العيون المترقبة .. كانت أسطح المنازل بقرية " كبريت " وهناجر المطار ، تعلوهـا رؤوس كالنمل لكثرتها ، تلوح بأذرعها ، وتكبر وتـــهلل بالفرحـــة .. ورنيـن التليفون لا ينقطع ، من زملائه بـــالمواقع الخلفيـــة يطلبـــون وصفـا تفصيليا للمشهد .. وهو لا يكل من الرد ، حتـــى بـــح صوتـــه وعـــلا لهاثه ..

كانت الليلة أشبه بيوم وقفه العيد .. لم ينم .. توافد عليه أفراد من وحدة المشاة ووحدة الصاعقة المرابطة بالمطار بـــالقرب مـــن مركـــز الملاحظة .. وهو لا ينسي وقائع اليوم التالي للحدث الذي أطلق عليـــه جنود المنطقة " يوم الموقعة الكبرى " .. وأصبح يؤرخ له .. هذا ما قبل الموقعة بكذا .. وذاك ما بعدها بكذا ..

كان صباح .. عيد بحق .. مع إطلالة الفجر بدأ يهده التعب ، مـــن طول السهر والمراقبة .. وتيقظ ألم الإصابة في الرأس الذي نساه فـــي سورة انفعاله .. سقط فريسة نوم ثقيل .. وقـــد أتـــي لزيارتـــه قـــائد السرية .. وقائد الكتيبة .. ومجموعة ضباط المواقع .. عندما شـــاهدوه علي هذا الحال .. اكتفوا بتفقد تمام مركز الملاحظة .. وأعطـــي القـــائد أوامره بمتابعة ، أي اقتراب للعدو من الموقـــع المدمـــر .. والإبـــلاغ الفوري عن تلك الحالات .. مع التنويه عن نوع المركبة ، أو الآليات .. ثم انصرفوا دون أن يوقظوه .. وقد أيقظه بعدها – ذلك الجندي الـــذي

ذهب لإحضار طعام الإفطار من نقطة الشئون الإدارية ، لوحدة المشـاة القريبة .. لأن أفراد الفصيلة مأمّدونَ عليها .. وقتها قال له الجندي :

– ضابط الشئون الإدارية أمتنع عن إعطائي إفطار الفصيلة ، وقال لابد من حضور قائدك .. وعندما ناقشته ، أمرني بالانصراف ..

لشدة إرهاقه ، حاول أن يقنعه بالعودة وحده .. لكنه وجده حـائرا ، متردداً ، فآثر الذهاب معه ليستوضح الأمر .. وكـانت المفاجـأة فـي انتظاره .. بداخل المطبخ وفد من فلاحي قرية " كبريت " .. أمامهم أحـد العجول المذبوحة ، وجزار يقوم بأعمال السلخ بجوار الذبيحـة توجـد أكوام من البلح واجولة السمسم ، وأشياء أخري لم يتبينـها – مـن خيرات القرية .. جمعها هذا الوفد .. وأصروا علي توزيع الأنصبة علي أبطال المدفعية وجنود المطار بأنفسهم .

كان بحق ، يوم عيد لا ينسي .. لكن ما الذي يحدث علي السـاحة الآن .. هدوء لا معني له .. وقلوب معلقة في فراغ ..

العربة ما زالت تجوب المنطقة ، شمالاً وجنوبـاً .. ولا يقـر لـها قرار .. وعقل " إسماعيل " هائم أيضا ، لا يقر له قرار . إلي أن توقفت العربة بالقرب من موقع مدفعية .. نادي القائد فرد الخدمة :

– يا ولد .. يا ولد ..

حضر الجندي .. أدي التحية ..

– من قائد هذه الكتيبة ؟ ..

– سيادة العقيد " محمود أمين " ..

– سلامي له .. أنه دفعتي .. قل له عقيد " عـلاء " دفعتـك .. ثـم أحضر لنا زمزميه ماء ..

قبل أن ينصرف الجندي ، صرخ " إسماعيل " فجأة ، كأن حشـــرة لدغته ..

– يا جندي .. يا جندي .. هل تعرف النقيب " سيد زهو " ؟ ..

– قائد سريتي .

– وهل الضابط " أحمد الحوتي " موجود ؟

– نعم بقياد الكتيبة ..

نظر " إسماعيل " لقائده بدهشة ..

– وحدتي .. وحدتي السابقة .. يا أفندم هنا .. ليتني أكون بجوارهم

– حاسب .. حاسب .. أفزعتنا .. لك يـــا " إســماعيل " تصرفــات غريبة ..

وجه " إسماعيل" حديثه للجندي ، دون أن يلتفت لتعليق القائد :

– متى نقلتم إلي هنا ؟

– بعد المشروع مباشرة ..

توجه بحديه إلي القائد :

– من الجائز أن ننقل نحن أيضا إلي هنا ..

– وما أدراك ..

– قلبي يقول لي ذلك ..

بعد أن شربوا .. قال القائد :

– ليس لدينا وقت للاستضافة .. أمامنا عمل طويل .. وعلي كـــل ، هذه المنطقة مناسبة .. فليكن الموقع الرئيسي هنا .. بشرط أن يكـــون علي مسافة أربع أميال – علي الأقل – لجهة الجنوب .. حتـــى تكـــون بجوار أحبابك ..

وتم انتخاب المواقع ، ووضعت علامات المرابض ، والملاجـــئ .. وتقدموا لجهة الشرق .. فعثروا علي أماكن مجهزة لمراكز الملاحظات، كانت تحتلها وحدات مشاه ، في الميول الأمامية لتباب ، كـــانت الحـــد الطبيعي لحقول القرية المجاورة .. وكان يوجد علي مقربة من المنطقة ملجأ ذري أقيم بمعرفة إحدى شركات المقاولات .

انتهت المهمة ، وعاد الركب إلي منطقة " سيدي الدكروري " بعـــد يوم حافل .

أمضي " إسماعيل " بقية الأسبوع ، ما بين ملل الفـــراغ، ونشـــوة لقاءات الاستراحة .. وقد حاول أن يشغل نفسه ، أبان هـــذه المـــدة ، بشيء آخر ، أجدى .. فأعاد إلي بساط البحث اقتراحاً كان قد عــــرض عليه من عريف استطلاع برناســـــة الكتيبـــة ، قـــرب الانتـــهاء مـــن المشروع ، وبعد أن دمـــــر الـــــهدف الـــهيكلي تدمـــيراً أثــــار دهشـــة المحكمين .. وقتها قال له العريف :

– لقد راقبت الهدف معك .. أن تدميرك له بهذه الطريقة ، يعد فخر لنا .. نحن الجنود المؤهلات بالكتيبة .. لأننا نعتبرك واحد منـــا ، رفـــع رؤوسنا .. بالرغم من أنك تفضل العزلـــــة والابتعـــاد عنـــا .. وبـــهذه المناسبة ، لماذا لا ننضم نحن لك .. إذا كنت لا تريد الانضمام إلينا ..

قال " إسماعيل " :

– وكيف يكون ذلك ؟! ..

– أنت أيضا الذي بيده ذلك ..

– أفصح عما تريد ..

– من مدة فكرنا في اقتراح ..

– من الذي فكر ؟

– نحن مجموعة المؤهلات العليا بالكتيبة ..

– وما هو الاقتراح ؟! ..

– لماذا لا تكون فصيلتك كلها من المؤهلات العليا !! ..

– عندي الكفاية من الكفاءات ..

- لا اعتراض علي ذلك .. لكنا ننشد التضامن ، والانسجام في الأفكار .. وكله لصالح العمل ..

عند ذاك تذكر " إسماعيل " مأساة الجندي " حسن سعد الدين " وأدرك أن هذا النوع من العصبية له يد لا تنكر في مأساته .. فقال :

- لا .. وألف لا ..

- لا تتعجل .. وأزن الأمور .. أترك لنفسك فرصة للتفكير .. خاصة وأن الظروف الآن مهيأة لأجابه كافة طلباتك .. طلب بسيط كهذا سيحوز موافقة القائد علي الفور ..

- لا تفكير ..

- أنت وشأنك ..

لم تعجبه لهجة الثقة الأخيرة .. لذا فإنه قد أصر - وقتها علي الرفض .. لكنه الآن حائر .. يراجع نفسه .. الاقتراح جيد ، ويمكن أن يجعل فصيلته لا تطاولها الرؤوس .. يقف في مواجهته مأساة ، لا يمكن إغضاء الطرف عنها .. وهناك ما يعتبرونه حثالة الكتيبة ، ويناصبونه العداء .. إنسان لا يفهمه ، حتى زملائه المؤهلات .. المعادلة الصعبة .. لابد من حل يوفق ما بين الأضداد .. وقد جاء الحل بأسهل مما كان يتوقع .. أثناء جلسة ما بعد الغذاء بميس الضباط .. حين مس طرف الموضوع مسا خفيفا أمام قائد الكتيبة .. وعرضه بطريقة من لا تعنيه الأمور من قريب أو من بعيد .. فقد لاقي اقتراح تشكيل فصيلة أغلبها من المؤهلات ، يكون هو قائدها ، ترحيبا كبيرا .. حتى أنه قد شك - وقتها - أن يكون هؤلاء نخبة من المشاغبين ، يتسابق القادة في التخلص منهم .. فإن قرار القائد في هذا الشأن لم يلق أى اعتراض أو مناقشة من قادة السرايا ..

وأصبح " إسماعيل " يوما ليجد لديه عدة مواهب في العمل والحياة .. قل أن تتوفر لقائد آخر .. وقد لفت اهتمامه ، نجمين من المجموعة – لا يمكن أن تخطئهما عينا أي زائر للموقع الأول – شهرته " مثال حلول " .. هادئ .. صبور .. مثالي .. وأيضا فنان ، ذاخر الخيال .. والثاني .. " عبد الله سلطان " يفوق نجوم الفكاهة في خفة الدم .. بجانب تفوقه في العمل .. وقد عول كثيرا علي الصحبة الجديدة في إقرار الألفة وهدوء الروح .. وأنساه العمل في رحاب النخبة الجادة المرحة ما هو مقبل عليه من مشاكل .

ها قد عادت الأيام الخوالي .. وهلت روائـــح الجبهـــة .. بعـــد أن انتظمت أعمال الحفر .. التي لقي في بدايتها عنتنا لا يقل عمـــا لاقـــاه بأرض المشروع .. تلك الفترة التي كانت قد انتهت علي خير .. ها قـــد بدأ قريبا من موقع كتيبته السابقة .. لكنه القريب البعيد .. أربعة أميـــال يمكن سيرها علي الأقدام .. لكنه في الأسابيع الأولي لبدايات الحفر كان أعجز من أن يسير خطوتين بعد إرهـــاق ومســئوليات يـــوم عمـــل بالكامل .. كانت أطقم الحفر تفي بالكاد للأعمال المطلوبة .. وتوزعـــت جهوده ما بين تخطيط المرابض وملاجئ الأفراد ، وخنادق المواصلات علي الأرض بالجير ، وتحديد كل طـــاقم ، ووضـــع بيـــارق التأشـــير عليها .. ثم تقسيم الأطقم .. لتسهيل أعمال التمام .. ووضع حكمدار لكل طاقم ، من فصيلة المؤهلات ، يكون مسئول أمامه عن معدلات الحفـــر اليوميـــة .. والتمـــام .. ثـــم التوجـــه مـــع رقيـــب أول الســـــرية ، لاستلام الأقفاص ، والقضبان الحديدية ، والمكعبات الخرسانية ، مـــن لدي وحـــدة المهندســـين بمعســـكر " حبيـــب الله " .. علـــي طريـــق الإسماعيلية/ السويس .. ثم المشاركة بجهد عضلي ، لا يقل عن جـــهد أي جندي في تفريغ العربات المحملة بمعـــدات التجـــهيز الهندســـي .. صحيح أنه في هذا – كان يعمل متطوعاً .. إلا أنه كـــان يعمـــد ذلـــك لإعطاء المثل لجنوده حفزاً للهمم .. التي رأي من بعضها الـــتراخي .. خاصة لمن عاش علي أمل الراحة بعد المشـــروع .. وأيضـــا ليعطـــي لنفسه جرعة زائدة من النشاط تثنيه عن التفكير في همومه الخاصـــة التي أصابته بنوع من الإحباط الحاد ، كاد أن يهدمه .. بشـــيوع ذلـــك

الإحساس القاتم بضياع معالم الهدف العام .. نظراً لحلول ، فترة وقف إطلاق النار .. التي بدت دون معنى ، في نظر الكثيرين .. وكذا الإحساس بفراغ ، ما بعد ضياع هدفه الخاص " فريدة " .. حبه الذي كاد يتوقف نبضه .. بل أنه أدرك أخيراً أن النبض قد توقف تماماً .. أثر محاولات عديدة – قام بها – لاختبار قدرته على تخيل ملامح وجهها .. باءت جميعها بالفشل .. فقد ضاعت ، وسط ملامح وجوه عديدة أبرزها وجه " رابحة " الذي اقتحم الذاكرة بالجرأة والتحدي .. وقتها ، قال لنفسه " أنها ملامح واعدة بحقبة أكثر جدة وغرابة .. لكنه كان أسير اللحظة .. والواقع المعاش .. الذي جعله يعلو علي طموحاته الخاصة .

وقد شاء – من أول يوم – أن يعلن عن قدومه لساحة الجبهة ، بعمل آثار دهشة المحيطين ، الذين كانوا يرونه – حتى هذه اللحظة – مثالاً للتحفظ ، والاتزان .. لقد أمسك بمقبض بندقية آلية ، بعد أ، حشي الخزنة بطلقات صوت ، وأخذ يطلق في كافة الاتجاهات ..

– الجبهة يا جنودي .. الجبهة .. ألا تستحق منا ما هو أكثر من فرح العمدة .. إذا لم يكن لنا نصيب في احتلال هذا الموقع ، فلا أقل من أن نترك أثراً لأظافرنا على وجه الأرض .. الحرب قادمة لا محالة .. فلقد كثر الأوغاد بالخارج .. وبالداخل أيضا .. تلقف " عبد الله سلطان " أول بادرة من بوادر تحرر القائد الصامت ليناوشها :

– عرفنا أوغاد الخارج .. وهم أمامنا بالقناة يستحمون الآن .. من هم أوغاد الداخل يا أفندم !! ..

كانت لفتة ذكية من العضو المرح لفصيلة المؤهـــلات ، لاختبـــار مدي استعداد القائد للاندماج التام ، في عالمـــهم .. وكـــان رد القـــائد حاسما في قبول عضوية الأسرة .. بلا تردد قال مداعبا :

- هذا من صميم خصوصياتي .. أيها الخبيث ..

وعلي الفور ، تقيأ باطنة - بقسوة وقائع الساحة التي خسر عليها موقعة الحب .. قال لنفسه : " شأن النكسة .. لم تكن الأطراف متكافئـــة وعلي أي وجه .. ثم بدربة ، وصلابـــة .. أجتـــاز حـــاجز الأســـلاك الشائكة .. ليواصل :

- فقط علينا الآن ، أن نعلن قدومنا لأسرتي القديمة .. في القريـب إن شاء الله سأعرفكم بهم .. أنهم أبطال .. لقد كانت لي معهم وقـائع لا تنسي .. وهم الآن ســـيصبحون - بالنسـبة لنـا - أقـرب القـوات الصديقة .. وسوف أجعل أمد التعيين والمياه عليهم ..

وعلي الفور ، أوفد لهم كل من رقيب أول الســـرية ، وبصحبتـه الجندي " حسن سعد الدين " ليقدموا كشـــفا معتمـدا بقـوة جماعـات الحفر .. وأوصاهما أن يعلنا لهم أن تلك القوة من ضمن كتيبة زميلـــهم السابق " إسماعيل إمام " .. حتى ينالهم قدراً من ذلك الكرم الشـــرقاوي الذي تميزت به الشئون الإدارية الخاصة بهم .

كانت الأيام الأولي للحفر ، هي أصعب أيام التجهيز الهندســـي .. كان النوم يغشاه - علي غير العادة - فـــي الســاعات المبكـرة مــن الليل .. وقد حالت تلك الصعوبات ، بينه وبين زيـــارة رفـــاق الســـلاح السابقين .. إلي أن جاءت المبادرة الأولي من جانبـــهم ، وأوقـظ ذات ليلة ، لتغشي عينيه أضواء نجوم دفعته .. " أحمد الحوتي " ... " محمد

أبو سلامة " ... " سيد زهو " ... تتبعهم رائحة الذكري .. قال " أحمـــد الحوتي " :

– أيه .. هل كانت عشرة " قروان " .. لــم نكــن نعـرف مكـــانك بالضبط ..

– هاكم ترون دفعتكم البائس .. مهدم .. أنت هنا تنعمون بخـــيرات وقف إطلاق النار .

– لماذا .. ألم نكن بجانبك بالمشروع .. هل نسيت بسرعة !! ..

– لم أنس ، ولكنكم صيفتم قبل الأوان .. أخذتم مهماتكم ورحلتم .. لم يكن العشم .. ليتكم حضرتم التصفيات .. لقد كانت المنافســـة علـــي أشدها ..

– أخباركم عندنا أول بأول .. سمعنا أنك قطعت السمكة ، وذيلها .. ها ها ها .. هاى . عادت بشائر الأمل ، والمرح .. آه ، لو نظل علـــي هذا .. لكنها ليست سوي مهمة حفر ، وكل يمضـــي لســـبيله .. هكـــذا الأيام .. اعترته غصة ألم ، طمستها معالم الوجه الســـادر بالدهشـــة .. قال " محمد أبو سلامه " :

– لدينا اقتراح .. لماذا لا تشترك في ميـــس الضبـــاط عندنـــا .. وتكون فرصة للقاء اليومي .

– ليس لدي مانع .. فقط لدي بعض المشاغل ..

– بالمناسبة ما هي آخر أخبارك الأدبية .. هل نشرت شيئا ..

– لا أواجه بعض المتاعب التي تعوقني عن الكتابة .. لكننـــي أري أن التجربة أعمق وسوف تفيدنا فيما بعد ..

– وأيضا ما هي أخر أخبارك العاطفيـــة .. هـــل تزوجـــت البنـــت " سنيه" .. آسف .. آسف .. أعني البنت " فريده " .. ها ها .. ها ها ها ..

- نرجو التزام الأدب ..

- سمعا وطاعة أيها القفل .. علي العموم سنتركك الآن .. لتستريح من وجوهنا .. ونرجو أن نراك قريبا ..

- انتظروا .. الشاي يا " حسن " ..

- لا يا شيخ .. لماذا لم يشملنا كرمك من أول وصولنا .. أتريد أن تعرفنا أنك الكل في الكل هنا .. ولك مراسلة ..

- نعم .. نحن لها .. أنا هنا القائد المسئول ..

أنصرفوا وسط عاصفة من الضحك والمرح .. وتركوا له قلبا معلقا بالرجاء والرغبة في الانطلاق والتحرر ..

بعد أن انتظمت أعمال الحفر .. تقلصت الواجبات الملقاة علي كاهله شيئا فشيئا .. إلي أن أصبحت قاصرة علي إجراء التمام الصباحي ، والإشراف علي الأعمال وإبداء الملاحظات .. واتسعت دائرة الفراغ .. التي أتاحت له فرصاً عديدة للقاء زملائه .. وعودة الأيام الخوالي .. وقد أكتسب خلال هذه المدة مهارة قيادة العربة بمساعدة الجندي " حسن سعد الدين " .. الذي كان يصحبه في جولاته بالمنطقة .. وأمضي قرابة الشهر أنجز في غضونه - بجانب تجهيز الموقع الرئيسي .. الذي كان العمل به يسير سيراً خرافيا .. مهام لم يكن يحلم بها .. فلقد أكسبه مخالطة الجنود .. والنوم في العراء بجانبهم .. ذلك التآلف الذي كانت تقف دونه العديد من الحواجز النفسية .. لتولد له أسرة جديدة أصبحت تشده وتستهويه بهمومها البسيطة الآسرة .. بأكثر مما كانت عليه أسرته السابقة .. وقد أنتهز تلك الفرصة وآخي بين تلك الأسرة الجديدة ، وبين أبنها المارق " حسن سعد الدين " .. ليصبح عضواً هاماً يقوم علي أعمال الشئون

الإدارية .. يتحرك بالعربة لكافة المأموريات القريبــة ، مــن إحضــار الطعام وملأ " الجراكن " بالمياه .. وشراء بعض الفواكه والخضر مــن القري القريبة .. بل كان أحيانا يساعد بعض الأطقم ، التي تخلفت عــن غيرها في الحفر لوعورة القطاع الخاص بها .. ولــم يـثر دهشــتهم تحركه بينهم بغير حرس ، واستخدامه لعربة ليسـت عهدتــه .. لأنــه أصبح بحق واحد منهم .. فقط ينتظر محاكمة نساها الجميع .. ولم تغب عن بال اثنين فقط ، هو والقائد " إسماعيل إمام " .

من خلال تأمل عميق لطبيعة العلاقات بين البشر .. أظــهرت تلــك الفترة " إسماعيل علي حقيقة تأخر إدراكها " . وهي أن هنـــاك ثمــة علاقة وطيدة تربط ما بين ساحة المواجهة وبين هذه القدرة الســريعة علي التآلف ، ونسيان الصغائر .. فقد أتضح له أن هذه القدرة تتناسـب تناسباً عكسيا مع قصر أو طول المسافة التي تربطنا بالجبهة .. كلمـــا قصرت المسافة زادت القدرة علي التآلف ورأب الصدع الناشــئ عــن الأنانية والطموحات الفردية .. وكلما زادت المسافة ، قلت هذه القــدرة بما تؤدي إليه من إضعاف للروح الجماعية .. ولأول مرة يخرج مفكرة من جيبه ليسجل هذا الخاطر ..

" بداية سبتمبر لا شك أن للجبهة مفعول السحر – علي العلاقـات- في حال السلم .. بما لا يقل عنه في حال الحرب ..

كان قد مضي شهر بالتمام ، لم يشعر به .. قاربت فيه – الأعمــال بالموقع الرئيسي – علي الانتهاء .. ولــم يبـق إلا تطــهير خنــادق المواصلات ثم أتاه البديل .. ضابط الموقع .. وأعطاه تصريحا بأجـــازة سنوية لم يكن يتوقعها – خمسة عشر يوما بالكامل .

أول أجازة يحار في شأنها .. أنتهي به الأمر إلي أن يقسمها قسمة عادلة ، ما بين القاهرة والبلدة .. قال لنفسه : " لم يعــد لــي بــالبلدة سوي الأهل .. ولفح ذكرياتهم ، لم تعد بي طاقة علي احتمالها .. ويكفي الأهل نصف الأجازة بالكامل .. لعل النصف الأخر يعينني علي قطع دابر الضجر .. "

بالقاهرة .. أمضي اليوم الأول بنهم الباحث عن المتعة بلا خطــة .. من شارع لآخر ومن سينما لمسرح .. جارا في ذيله " شــوقي خليــل " زميل الدراسة ، الذي كان يجاريه مـــن بــاب أداء واجــب الضيافــة الثقيل .. لأنه لم يسبق له أن جرب جرعة ثقيلة من مثل هـــذا النمــط الصاخب للمتعة ، وكان لا يني عن إعلان سخطه .. كلما حـــانت لــه فرصة ، كالشأن حين يتوقف " إسماعيل " لتأمل شئ يبدو تافــها فــي نظره :

– أنك تفضحنا بتأملاتك الساذجة .. مظهرك فيه شــئ مــن ذلــك القروي الذي بهرته أضواء المدينة .. غض الطرف يا رجل عن سيقان النساء ..

– آه يا شوقي أنك لم تجــرب قــط عــذاب الحرمــان بالمنــاطق الصحراوية .. هناك ليس أمامك سوى اللون الأصفر .. الرمال .. الجبال .. الثياب .. ملابس الجنود .. بل أحلامك ذاتها وخيالاتك تــأتي موشــاة باللون الأصفر .. الذي يحرك في باطنك العديد من المشاعر الصفـــراء المبنية علي الشك في جدوي أي شئ .. لقد نسينا اللون الوردي ..

كانت الطامة حين نام شوقي أثناء العرض المسرحي الذي اختـــاره " إسماعيل " من بين العديد من العروض التافهة .. فقد أيقظه في عنف وقال له :

– ها أنت آخر رفيق لي بالحياة المدنية .. لم تعد تصلح لرفقة ليلة

– يا رجل .. وهل ذا عرض .. مجموعة من الناس تصــــرخ فـــي وجوه بعضها بالفصحى .. لقد كان أمامك عروض كثيرة للفرق الخاصة والمسرح الكوميدي .. لكنك لا تهوي إلا النكد والصراخ .. لقد أفســـدتك الجبهة ..

– بل أن القاهرة هي التي أفسدتك .. أو قل قهرتك وجعلتك ترســـا في آلاتها ..

بعدها أدرك أنه لا طائل من وراء الرفقة وصمم أن تكـــون الليلـــة الأولي والأخيرة في صحبته .. ولم يشأ أن يخطط لما تبقي له من أيـــام كان يحسبها – فيما مضي بالدقيقة علي طريقة العد التنازلي .. وتـــرك الأمور كيفا أتفق ..

في صباح اليوم التالي أستيقظ متأخراً علي غـــير العـــادة ، ليجـــد نفسه وحيداً بالمسكن لذهاب شوقي إلي لعمله .. بعد أن تنـــاول طعـــام الإفطار .. خرج .. أخذ يجوب شارع شبرا بطوله ، بلا هدف .. أوشـــك علي نهايته .. ساقته أرجله ، بلا هوي أو إرادة إلي منطقـــة شـــارع الترعة البولاقية عبر الشوارع المتقاطعة والموصلة عرضيا .. ثم إلي " حارة السد " .. أفاق ليجد نفسه علي رأس عطفة " برقة " يقف حـــائرا متردداً .. تساءل .. أهكذا تصل بي الأمـــور !! .. مـــاذا أريـــد .. تلـــك البنت؟! .. بل قل ذاك الأسطي " رابحة " .. بماذا أفسر لـــهم أوبتـــي .. تامل واجهة محل جديد عليه بالمرة .. تحت طاقة من أضواء النيـــون

كان الاسم الذي شده بشباك قوية من أول لقاء يلمع " محلات الأسطي رابحة وشركاه " .. لم يشأ أن يصارح حتى نفسه بقوة ذاك الشد .. والآن علي مدي ثواني وقفها متردداً .. كان باطنه يصرخ بالحقيقة ، دون مواربة .. لا شك أن وقفتي علي مشارف القاهرة ، لم تكن دون سبب واضح ، كما خدعتني نفسي .. وترك القدر يصنع به ما يشاء ..

كانت الواجهة الزجاجية المحاطة بأطر فجة من الديكورات .. تخرق بتحدي قانون العطفة المغرقة في التواضع .. حتى أن زحام الرصيف المجاور .. قد أوسع لها مكانا - بأكثر مما تستحق - خجلا واستحياء ..

أطل بوجهه ، من بين الأرفف العامرة بقطع غيار السيارات .. كان الفناء الخلفي للمحل ما زال يعمر بطرقات السمكرة .. وقد عجب لذلك .. هل هناك باب يصله بالشارع الموازي .. ثم تبين له أن ثمة باب للفناء علي العطفة يجاور باب المحل .. لم يكن قد رآه في المرة السابقة .. بادرة صوت بالداخل .. توقفت علي أثره الطرقات :

- ياه وجه القمر أم وجهك !! .. أدخل يا كابتن ..

كان صوت الأسطي " رابحة " .. التي هبت لاستقباله .. بحرارة من كان بانتظار حبيب فات موعده .. شدت علي يده ولم تتركها ، حتى بعد أن جلس .. شاور نفسه أيسحبها .. تردد .. ثم أحس بدفء أنثوي يتسلل من بين الأخاديد الخشنة لكفها .. أستسلم ..

- ها أنت ترانا علي هذا الحال ، لأول مرة .. هذا أحسن .. وأن كنا في شوق إليك .. يعلم الله .. قلبي معك .. بل قلوبنا جميعا معك .. لقد أتي ذكرك علي لسان المرحوم ، قبل موته بثواني .. أنت رجل أبن حلال ..

ياه لقد اختصرت المسافة الفاصلة إلي عالمه بأسرع مما كان يتوقع .. أربكت تلك الطريقة ، في الاقتحام ، كافة حساباته القديمة ، في مواجهة الجنس الآخر .. هذا نوع آخر ، لا يعبأ بشباك الرجال .. قال لنفسه : " لم يعد لك القياد هنا .. أنت قائد فقط بين جنودك .. وما أسهل هذا النوع من القيادة ؟ " .

ثم بادرها :

– من تعنين بالمرحوم ..

– ياه لقد بعدت عنا كثيراً .. لم يكن العشم .. ألم يخبرك عم " صابر " .. المرحوم والدي الحاج " أمين " ..

رد بانزعاج مفتعل :

– البقية في حياتك .. في الحقيقة عذري أنني نقلت من المنطقة .. ولم أعد أقابله في تلك الأثناء خرج عليه " عزت بلية " من الباب الموصل بين المحل وورشة السمكرة .. كان يرتدي " أفوولا " أزرق " جنزاري " من نفس نسيج الأفرول " الذي ما زالت تلبسه الأسطي " رابحة " .. بالرغم من أنها قد بدت متفرغة لأعمال المكتب بالمحل .. عانقه " بلية " بحرارة .. قال :

– أعرف أنك قلبت الدنيا بحثا عني بالاستراحة .. عم " صابر " قال ذلك .. لكن هل يكفي السؤال .. أنني أنتظرك هنا كل يوم .. بعد أن كبلتني أختي بأعمال السمكرة .. ماذا أفعل .. لم يعد لهم رجل غيري .. كما تقول دائما . وعمي " صابر " لا يريد أن يترك عمله بالاستراحة .. بعد أن سودت أختي " فكرية " عيشته .. كنت أنتظرك وأقول لماذا لم يأت .. وقد عرف العنوان ..

قالت الأسطي " رابحة " :

- عيب يا ولد .. الرجل لابد أن يكون رجلاً في كلامه .. أتريـــد أن أغير رأيى .. ثم توجهت بالحديث إلي " إسماعيل " :

- أيه .. ما رأيك الآن في " عزت " بعد أن هداه الله ..

- كنت أريد له ذلك ..

- وما رأيك في المحل الآن .. أليس ذلك أفضـــل ؟! .. " الحـــاج " رحمه الله لم تكن تعجبه هذه الفكرة .. كـــان يصـــر علـــي ألا نـــترك المهنة .. وقد وفيت له بالوعد .. وأبقيت الحال علي ما هـــو عليـــه .. والآن رأيت أن المهنه قد ضاقت بأصحابها ، وأصبـــح العثـــور علـــي صبي وليس " أسطي " من رابع المستحيلات ، والناس أكلـــت وجـــهي من كثرة الأقاويل .. أنهم يعتبرون عملي علي هذا النحو ، نـــوع مـــن الجرأة ، والوقاحة .. إلا أني بعد أن عدلت قليلا في نوع العمل .. هـــل علي " الأسطوات " من كل ناحية ، ففضلت الابقاء علي النشـــاطين .. وهاك تري أن " الأشيه " أصبحت معدن .. وها أنت تهل علينـــا فـــي الوقت المناسب .. كنت في حاجة لشخص مثلك ، ليعينني بمشورته ..

- لم أنا بالذات !! ..

- ألا تري أننا بحاجة إلي رجل بحق .. أنك لا تعرف مكانتك عندي .. رجل متعلم يستطيع أن يدير دفة الأمور .. بدلا من أن تديرها امـــرأة جاهلة ..

- مسألة عمل يعني ..

- ولم لا .. مكانك محفوظ حتى تنتهي من الخدمة .. أســـتطيع الآن أن أعطيك أضعاف مرتبك من الحكومة .. المستقبل يا ســـيدي لرجـــل الأعمال ، وليس لموظف مهما بلغ شأنه .. هذه الأمور لا يحســـها إلا من خبر السوق .. أنني الآن تعودت علي شم نكهـــة الريـــاح القادمـــة

والتنبؤ بها .. أنتم في الجبهة صدقني .. ألف رحمة تنزل عليكم لا أحـد يتذكركم إلا من نشرات المذياع .. التي لم تعد هـي الأخـرى تنبش سيرتكم .. انا الوحيدة هنا التي تحس بعمق الغبن .. وقد أخـذت عـهد علي نفسي إذا ما عمني النجاح ، أن تكـون محلاتـي مرفـأ الأمـان للعائدين من الجبهة .. ها .. ها .. ها ..

وأطلقت نوبة عالية من القهقهات .. غرور .. طموح .. لا أعلـم .. وأيضا فاهمة لكل ما يؤرق روحي .. أين أنت يا " فريدة " .. لا يعـرف ما الذي حدا به إلي هذا النوع من المقارنه .. بـدا سـاهما .. أوقفت النوبة قسرا ، وظلت تتأمله بشوق وتردد .. عرج علي المشهد بنظـرة شاردة .. لم يكن يصده عن شكلها الفاتن إلا الجرأة ، والصوت الخشن نوعا .. والذي توشيه نفحة من نفحات دهماء الرجال .. ولـم يشـأ أن يفصح عما يحسه ..

– أستأذن ..

– إياك أن تكون أخذت علي خاطرك .. لن تمضي قبل أن تتغـذي معنا .. البيت أمامك .. لم نأت لك بأي مرطب .. أذهـب يـا " عـزت " أخبرهم بحلول ضيف .. وأنت يا " فراج " لن أعود بعد الغذاء .. آخـر النهار أقفل المحل .. وأرسل المفاتيح ..

وبدأت سلسلة الأوامر .. أحس " إسماعيل " أنه مساق إلي ورطة .. فقد الحماس :

– وقتي لا يسمح بالضيافة .. سأزوركم مرة أخري ..

– ما المسألة .. أبخيل أنت .. أم ما زلت غاضبا مني ..

– المسألة .. أجازة قصيرة .. يومين فسحة " بالقاهرة " ثم نذهـب لكي يرانا أهلنا ..

– فسحتك علي حسابي .. طيلة وجودك هنا .. أنت ضيفنا يا بخيـــل .. قلت أني أريد مشورتك ، فقد استأجرت محلا في وسط البلد .. سوف يعجبك .. دفعت فيه تحويشة العمر .. وأنوي الخروج علي وجه الدنيـــا بشراء شقة .. الحكاية يلزم لها جلسة كاملة .. هل تبخل علينا ..

ما الحال .. هو الرجل ، وهي المرأة .. لم يسبق أن ووجـــه بـــهذا الكم من المبادأة .. من طـــرف واحـد .. وممـــن !! .. ذاك الطــرف المستحيل .. تراخي قليلا .. ثم .. ثم .. استسلم .

* * *

جاءت فسحة ما بعد الغذاء بأكثر مما كان يتوقع .. فقط هلت عليــه كعروس .. برداء سهرة .. ووجه باهر دون أصباغ .. فقط تسدل شعرها الناعم كالحرير ، علي الأكتاف .. ذاك الشعر الذي كان غطاء الــــرأس يحجب روعته ، منذ قليل .. وقد أصاب مشهدها قلبه بصدمة خفيفـــة .. قلبت موازينه .. وجعله يشك أن تكون هي الأسطي " رابحة " .. إلـــي أن أعاده الصوت الصارم الخشن .. إلي لذعة الحقيقـــة التـي كـــانت تتواري خلف خشونة " الأفرول " .. بقي مشدوها .. قالت :

– سوف أمر علي المحل الجديد مع الكابتن .. وأعود ..

لم يعلق أحد .. وكادت نظرات " فكرية " الغيورة أن تأكلها بغيظ :

– لا تتأخري .. " صابر " قد يأتي الليلة .. لا أريد وجع دماغ ..

اصطحبته إلي كازينو " الشجرة " .. ولم تترك له فرصة الاختيـار .. كانت تطيل الحديث مع النادل .. بلهجة من يعرف كل النـــاس .. ولـم تلحظ تلك المسافة الفاصلة ما بين الصوت والشكل .. تلك التي أصـــابت النادل بما يشبه صدمة .. حجبه عن التعبير عنها أصول المهنة .. وقـد

كاد ينسي نفسه مرة ويبادلها جرأة بجرأة .. إلا أن نظرات " إسماعيل " الجادة أوقفته عند حده .. فعاد إلي رقته .. وكثرت ألوان الطلبات التي كانت تقدم باسراف علي المائدة .. ولم تدع له سخونة الجو والهمسات المحيطة .. وذاك الجسد الفتي المتناسق .. الغارق في نسق أنثوي نادر فرصة للتردد .. لمس ذراعها أكثر من مرة بلا أدنى اكتراث ، لما يدور بداخله ، من روادع أزليه .. لم يلمس صدودا .. أطال أمد اللمسات .. ثم لم يعد يصمد .. فأطبق علي قبضتها .. لم تسحبها خطفا .. بادعاءات اللقاء الأول ، كما توقع غطي وهج الحرارة ، علي الإحساس بخشونة ملمس الكف والأصابع .. قال بوله :

– سأفكر فيما قلتيه لي ..

– كأنك لن تزرونا غدا ..

– لا .. خف تعوم .. لا أريد أن أكون تحت رحمة نظرات " فكرية " وزوجها الصامت ..

– تريديني أن أزورك بنفسي أذن ..

– وما المانع .. ؟! ..

كالمستريب .. تمطت ابتسامة شاردة علي شفتيها .. ترددت قبل أن تقرر :

– من ناحيتي ليس لدي مانع .. أما من ناحيتك فأنا لا أعرف ظروفك ..

إلي هذا الحد .. وبسهولة .. لقد كانت نظرات " صابر " صائبة .. هذه البنت لا يصدها شئ عما تريده .. اهتزت اعطافة بالشوق .. ياه أتراه حب من نوع آخر .. ليكن .. لنوف التجربة حقها .. ضحكت وهي تتأمله :

– أنك لم تبت في الأمر ..

– فقط يكون اللقاء في الفترة الصباحية .. في غيبة زميلـــي .. لا أريد مشاكل ..

– كما تحب ..

أعطاها العنوان ، ثم ما لبث أن وخزه الندم .

* * *

بات " إسماعيل " محيرا .. لا يدري ما الذي فعله ، أو بالأحرى مـا الذي ألم به .. في لحظة نادرة من لحظات المكاشفة .. ظل ينقب ، فـي صفحات الحقبة القريبة ، من عالمه ، بنهم الباحث عن الحقيقة .. وجد أن هذه البنت ، لم تفارق خياله منذ اللقاء الأول .. فقط كان يصبغ لونا من ألوان التمويه الجيد علي مشـــاعره ..بـالإغراق فـي العمـل .. والغوص إلي أقصي درجة في مشكلات الآخرين .. حتى يملك القـــدرة علي طمس معالم الوجه الآسر .. فلم تكن النفس قد أخذت أهبتها بعـد الاستقبال هذا القدر من التحدي .. لكل ما هو مألوف ، دون تمـــزق .. وإلا فما الذي حدا به إلي اتيان تلك القسمة الغير عادلة لاجازته ما بين القاهرة والبلدة .. بغير ما هدف .. والقول بأنها عين العدل .

أمضه الأرق حتى الساعات الأولي لفجر اليوم التالي .. ونام علـي أمل ألا تحضر فتنتزعه من براثن الأفكار المهلكـــة .. إلا أنــه بعدمـا أستيقظ متأخرا .. ووجد أن أحدا لم يطرق بابه .. أصيب بخيبة أمل لـم يكن يرجوها لنفسه .. قام وقد تملكه سعار من فقد شيئا عزيزا يـــدور حول نفسه بلا هدف .. وعجب لذلك الإحساس .. كيف يزعجه حضورها في نفس الوقت الذي يشقيه غيابها ، لأمد ساعات .. لم يعد يحتمـل ..

قبل أن يهم بالخروج بحثا عنها .. سمع طرقات بالباب .. كانت هـــي .. أحس بقلبه يهوي .. وكأنه في النزع الأخير .. أهوي علي أقرب مقعـد لاهثا بالرغبة ..

– مالك !! ..

– دوار خفيف ..

– أفطرت ؟ ..

– ليس بعد ..

– دلني علي المطبخ .. كي أعد إفطارك .. حتى نخرج .. ليس لدي وقت هناك عمل ينتظرني .. لم أكن أريد أن أحضر .. لكنـــي أعطيـت كلمة..

– قلت أنها زيارة .. والزيارة لا تكون بهذه السرعة .

– فيما بعد .. لم أرتب لزيارة بمعني زيارة .. فقد حللت علينا بغـير موعد سابق .. وقد أردت بذلك أن أزيل ما بيننا من حواجز ، لأشـعرك بأنني أصبحت أعتبرك واحد منا ..

تبعها وهي سائرة باتجاه المطبخ .. تأمل تناسق اسـتدارتها مـن الخلف .. في غيبة من نظراتها الحادة .. انتابته رعشـــة .. كـادت أن تجثو – علي أثرها – ركبتاه .. امتدت يداه – دون أن يشعر – كمـن يطلب نجده .. وطوق خصرها بعنف .. لم يجد في مواجهته إلا شـلال منسكب من الشعر الأسود الفاحم .. قبله بحنان .. ورغبة .. تطامنت في وقفتها باستسلام .. كأن شيئا لم يحدث .. ثم فكـت طـوق خصرهـا بنعومة .. واستدارت بوجهها ..

– وبعد !! .. ماذا تريد ؟! .. هذا سابق لأوانه ..

لثمت شفتاه .. بلمسة خاطفة .. أذابت كيانه .

كان اللقاء الأخير قبل سفره بيوم .. بنفس الشقة .. وقد جرب فيــه ألوانا من المبادأة ، لم يعهدها في نفسه وروي ظمأ طالما أمضــــه .. لكنه حمل ندما ظل يرهق كاهله ردحا من الزمن .. تبين له من خلالــه عمق الفارق بين نضال قلب مندفع ، غض المشاعر ، وبين آخر مثقـل برواسب عطنة ، لا يمكن جرفها بسهولة .. إلي أن أغلقــت الأحــداث قسرا نوافذ الندم .. ليحل محلها خدر الاحساس بوخز الألم الناعم الـذي يوقظ نشوة التذكر .. لكل همسة ، ونأمه .

حال عودته من الأجازة ، دفع من " الجفرة " إلي منطقة " الشلوفة " مع طاقم غيار لاستبدال الأفراد ، بواقي الأجازات السنوية ، ومنـــهم ضابط الموقع .. كان العمل بالموقع التبادلي قائما علي قـدم وســاق .. ونظرا لكثرة الكثبان الرملية المتماسكة بفعل الإرتواء الدائـــم بـــرزاز المطر ، فإن أعمال الحفر كانت أسهل منها بالموقع الرئيســـي .. ظــل لفترة معلق في فراغ يعيش في مرحلة إنعدام الوزن .. كـــانت أحـداث الأجازة السنوية ما زالت تحدث أثرها .. حتى أنه كــاد ينســي شــغفه السابقة ، وفرحته القريبة بأول خمشة من أظافره علي وجه تلك البقعة القريبة إلي قلبه .. بعد غيبة طويلة عنها .. وقد ظن أن اندفاعه السابق لم يكن سوي رد فعل للانفعال الساذج .. وأنه لو بعد قليلا عن جمـــوح عواطفه لشاهد العديد من البقع الســـوداء التـي تلطـخ ذاك الواقـــع الآسن .. ليس ثمة حرب يمكن الركون إليـــها ، كمـا سـبق أن أكـد لجنوده .. فالحرب قائمة علي قدم وساق بيننا .. ومن داخل نفوســـنا .. وأنه ليس ثمة أيد شريفة ، وأخري غير شريفة .. فـالكل الآن ســواء عاد لعزلته وانطوائيته.. زاره العديد من الجنود وحكمدارية الأطقـــم .. أخجله اهتمامهم .. لم يشأ أن يفصح عما به .. تعلل بالمرض .. ثم حـل عليه الجندي " حسن سعد الدين " مكبلا بالحرس .. حـــال مشـــاهدته ، قال لنفسه : " إذا أردت السير علي ذلك الدرب الطويل فعليك أن تبـــدأ من جديد .. وذاك من رابع المستحيلات .. " أعطـــي لـــه أذنـــه ، دون اهتمام يذكر :

- أراك مندهش .. هكذا يا أفندم نحـــن نســير خطــوة للأمـــام .. خطوتين للخلف .ماذا يمكن أن يفعل مثلك في هذا الجو .. مجرد يومين غياب لحضرتك عن الموقع .. عاد الحرس .. وعادت الأشغال الشـاقة .. والإهانات .. بأعتي مما كانت .. تنبه " إسماعيل " .. قال دون أن يعـــي الكثير :

- صبرا يا " حسن" .. لقد جهزت لك دفاعا كما يجـــب .. وســوف تري .. الناس لا يردعها إلا صرامة الواقع .. وسوف أعيدك إليهم بحكم قاطع ..

ثم شدته الأحداث بعنف إلي الواقع .. لكي يبدأ مسيرته من جديد ..

أوشك الشتاء على الانقضاء .. ولم يكن العمل قــد أنتــهي بعــد بالموقع التبادلي .. وقد وقع له - فى غضون هذه المــدة - حدثــان ، نجا منهما بأعجوبة .. حينما تفكر فيهما أدرك أن العناية الإلهية .. كانت بجانبه علي طول الخط .. بالرغم من ذاك الأثــم الــذي كــان يــؤرق ضميره .. ويكاد يقضي علي إيمانه وتماسكه .. ويوماً أقنع نفسه بـــأن الشقاء الدائم الذي يعيشه ما هو إلا تطهير للنفس .. من قبيل الحســاب الفوري..

أتى الحادث الأول ذات يوم عاصف من أيام الحفر الأخيرة .. كــانت برودة الجو قد وصلت درجة لا يمكن احتمالها .. وبعد أن أخلد الجميــع للراحة والنوم ، داخل ملاجئهم .. فوجئ " إسماعيل " قــرب انتصــاف الليل باستغاثة أفراد الخدمة قام مذعوراً حاملاً سلاحه ، وقد ظـــن أن هجوماً خلف الخطوط قد حدث .. قبل اجتيازه لباب الملجـــأ ، صدمتــه دفقه مياه ، مندفعة بسرعة الطوفان إلي المواضع المنخفضة .. ولمـــا كانت حفر الملاجئ ، ومرابض النيران يستوي سطحها بسطح الأرض.. فقد غمرت جميعها بالمياه ، قبل أن يستوضح الأمر .. لم يكن قد أفـــاق بعد من آثار النوم ، لذا فإنه لم يشعر بصفع رزاز المطر علي صفحـــة الوجه الذاهل ، والأطراف العارية .. ولا بدفق السيول المندفعـــة مـــن أعلي التباب المحيطة .. وبدأ له الأمر فى أوله كأصداء حلم ســـخيف ، حاول نفضه عن كاهله .. حتى يتأكد من تمام الصحو .. لدي تذكر بـــاقي الأطقم ، التى كانت غارقة فى النوم .. اعتراه الرعب ، واندفعت دفقـــه

من الدم الساخن إلي كافة شرايينه ، كانت بمثابة حقن التخدير لجـروح الصقيع المميتة .. وأنطلق يجري فـي جنـون ، متخبطـا فـي عـدة اتجاهات .. إلي أن اهتدي إلي تجمع قريب للأفراد .. وجد الرقيـب أول علي رأسهم .

– هل حدث مكروه ؟..

– لا يا أفندم الكل سليم .. فقـط البطـاطين والمـهمات أصبحـت لا تصلح .. أما معدات الحفر ، فيمكن العثور عليها بعد انحسار المياه..

– والبنادق..

– بحالة جيدة

– أعمل تمام..

– حاضر يا أفندم

باتوا ليلتهم علي سطح تبـة مرتفعـة .. فـي العـراء يقظيـن.. متعانقين ، تحت دفء الأنفاس .. وشبكة تمويه العربة .

الحادث الآخر ، وقع بعد انتهاء أعمال الحفر ، وعودة كافة الأطقم إلي موقع الكتيبة " بالجفرة " إلا من بعض الجنود المكلفيـن بحراسـة التجهيزات بالموقعين .. كان الشتاء قد ولي بوجهه ، وبـدأت بـوادر صحوة السماء ، وجاءت الأوامر بنقل بعض الذخـائر إلـي المواقـع المتقدمة .. ظن " إسماعيل " أن هذا الأجراء أحد المقدمات السابقة علي الانتقال إلي الجبهة .. وأخذ أهبته علي رأس " قول " الذخيرة ، متخـذا مسار مدق ١٢ المتقاطع مع وصلة الإسماعيلية السويس .. بعد اجتيـاز نقاط الشرطة العسكرية ، علي الطريق وقرب المواقع .. عـن لـه أن يقود العربة بنفسه ، فاستبدل مكانه بمكان السائق .. وعلي حين غـرة أكفهر الجو .. وغابت الشمس ، وتساقط رزاز المطـر ، ممـا أحـدث

زلقة ، خفيفة علي سطح الأسفلت .. عند الدوران للنزول مــن علــي الأسفلت ، إلي المدق الموصل للموقع الرئيسي .. انزلقــت العجــلات بطريقة أحدثت رجة بالحمولة ، أطاحت بالعربة فقلبتــها علــي أحــد الأجناب..

لم يصدق أنه نجي هو والسائق .. وطاقم الذخيرة الذي قفز بــدوره قبل انقلاب العربة .. ولم تحــدث إصابــات ســوي بعــض الخــدوش والرضوض ، وكذا بقيت العربة والذخائر دون خسائر جسيمة .. وقيــد الحادث تحت بند الظرف الطارئ ، بمساعدة قائد الكتيبة ، الذي أوقفــه " إسماعيل " علي حقيقة الأمر .. وقد أعجبه موقف السائق الذي واجــه مسئوليته بشجاعة .

أقبل الصيف بريعانه .. ثم أنتصف .. ثم أستعد لأدبـــاره .. دون أي أمل فى العودة إلي الجبهة .. ســـوي بعــض الحمـــلات– التـــى كـــان يرافقها – لصيانة الذخيرة ، وتطهير الخنادق والمرابض .. وكذا صيانة الملاجئ الفارغة .. حل صمت وملل .. وبدأت من جديد دورة الصراع ، والتطاحن علي " جراكن " المياه ووجبات التعين .. وتصاريح الغيـــاب.. والمغالطة فى دور الخدمات .. وأصبح "إسماعيل" يشهد كل يوم ألونـــا من الأنانية المضغوطة فى مساحة من الحياة شديدة التركيز .. فى غيبة تامة لأضواء الهدف العام .. فى غضون تلك الأيام – الفاقدة المعنـــي – برزت علي سطح ذاكرته لوحة كاملة ، لكافة ما أرتكبه مــــن أخطـــاء وآثام ، علي مدي سني عمره .. كانت تصيبه بوخز نصال تدمي روحـــة وجسده .. وبالرغم من عضويته الدائمة بأمسيات زملائــــه الضبـــاط.. وكذا " فصيلة المؤهلات " التى أنتمي إليها حديثا منبـــــهراً بطريقتـــهم الرائعة فى أزجاء الفراغ المميت ، للتغلـــب علـــي أهـــواء أنفســـهم ، ومتاعب الإحباط والضجر ، بروح العائلة الواعية المثقفة .. لم يفلح كل ذا فى انتشال روحه من الإحساس بالضياع .. وقد ظل علي هذا الحـــال إلي أن حل موعد محاكمة الجندي " حسن سعد الدين " .. فقد عاد إليـــه وهج الانتماء لفترة .. وظل لأكثر من ليلة ينقطع عن تلك الأمسيات لكي يعيد دراسة القضية .. ويراجع دفاعه ، الذى كان قد أعده من زمـــن ، وأوشك أن ينساه .. وقد قوبل هذا الانقطاع بالعديد من التعليقات ، التى كانت تدمر قلبه وروحة .. وقد كانت تصله ، علـــي ألســـنة الزمـــلاء

بالتلميح حينا ، والتصريح حيناً آخر .. حتى أتي ذلك اليوم الذى وجـــد فيه نفسه بساحة محكمة " الزويبقي " العسكرية ، مواجها نخبـــة مـــن أعضاء القضاء العسكري ، من رتب مختلفــة .. كــان الجــاني علـــي يمينه ، خلف حاجز ، مكبل بالقيد والحرس .. والمجنى عليه ، جالس علي يساره ، بملابسه المدنية ، بعد أن فصل مـــن الخدمـــة ، بســـبب العجز ، ممسكا بعصاً يتحامل عليها بسبب الإصابـــة .. بعد أن أعلـــن أسمه كممثل للدفاع جلس .. ثم اعترته الدهشـــة .. وأعمــاه الذهــول والرهبة ، عما هو فيه ، وأمسك بتلابيبه خــاطر ســخيف ، بــأن ذاك الجالس انتظارا للدفاع ، لم يكن هو نفسه .. بل شخصا آخر لا يعـــرف من أين يبدأ .. إلي أن أفاق علي ختام مرافعة ممثل الاتهام ، طالبا مـــن هيئة المحكمة تطبيق أحكام القانون .. وعندها أومأ الرئيس لـــه ببـــدء الدفاع .. وقف .. اعترته رجفة ، حاول التغلب عليها ، بإعادة استجواب الشهود ، أمام هيئة المحكمة ، كسبا للوقت ، ولكي يبرز لـــها افتقـــار الوقائع لشاهد عيان حقيقي .. بدأ خطته علي استحياء ، ورهبة ، إلـــي أن كللت خطته بالنجاح .. فلم يحدث تعليق أو اعتراض .. بل صمـــت ، ومتابعة من جانب رئيس المحكمة .. الأمر الذى أعاد الثقة إلي نفســه ، فأنطلق يستعرض دفاعه .. وقد هلت عليه كافة التفاصيل والبنود ، مــن حيث لا يحتسب ، بدءا من استعراض صحيفة أحوال كلا من الجـــاني بإبراز النقاط المضيئة ، والتركيز عليها ، والمجني عليه بإبراز حداثته والغض من شأنها .. واستعراض بعض العقوبات التـــى وقعـت عليـــه – أبان مدة خدمته – والتركيز علي عقوبة الحبس للإدعـــاء الكـــاذب علي صف ضابطه الأعلى ، فى غضون فترة التدريب الأولي .. ومروراً بالوقائع الملابسة للحادث ، والمشكوك فى صحتها ، وانتهاءً بأهم بنـــد

، وهو فنية استخدام السلاح ذاته ، والتى تقطع بأن اتجاه المقـذوف ، من نقطة النفاذ ، حتى نقطة الخروج – حسب التقريـر الطبـي – لا يمكن حدوثها إلا بطريقة لا إرادية ، وتحت ظرف قـاهر .. رجـح أن يكون بتأثير عامل الشد والجذب ، فى مشادة فارغـة ، دفاعـا عـن النفس .. وختم المرافعة مطالبا هيئة المحكمـة بـالبراءة .. ورفعـت الجلسة لسماع النطق بالحكم .

خرج " إسماعيل " .. من قاعد الجلسة لاسترواح نسـائم المنطقـة المجاورة .. ليتناهي إليه صوت كان يلاحقه من مسافة قريبة :

– مبروك مقدما يا أستاذ .. مرافعة مدهشة .. لم أعرفك بنفسـي " عبد الحميد طايل " .. محامي من طنطا .. يبدو أنك محامي بالمدنية..

– محامي حكومة..

– مكتبي تحت أمرك .. بعد أداء الخدمة طبعا .. نحن فـى حاجـة لأمثالك .

– ما زال أمامنا الكثير .. وأنا لم أقرر بعد .

– وهل مثل هذه الأمور يلزم لها قرار .. أنت لها .. أتنبأ لك بنجـاح باهر فى ساحة القضاء الواقف..

– لم يحن الأوان بعد..

شد علي يده .. وأعطاه " كارت " باسمه .. ثم عاد " إسماعيل " إلـي قاعة الجلسة ليسمع الحكم بالبراءة مدويا .

عاش " إسماعيل إمام " فترة ليست بــالقصيرة ، بموقـــع الكتيبــة " بالجفرة " ، منعما برعاية الجندي المتحرر " حســـن ســـعد الديـــن " – الذى نساه الجميع بعد البراءة – فتفرغ تماما لخدمته رافضا العـودة لعمله كسائق .. وعاش أيضا منعما بذلك الإحساس المنعش بالانتصار.. الذى نثر علي سطح الذاكـــرة غلالـــة طمســـت ســـقطاته ، وصغـــائر المحيطين حوله .. ودرج علي العودة النشطة ، إلي أمســـيات فصيلـــة المؤهلات المرحة .. وأن كان – فى نشوة ذلك الإحساس الجميل – قــد حولها إلي منتدي لمحاضرة الجنود فى كافة مشكلاتهم ، لكي يخفـــف من حدة تلك الروح الفردية ، التى أضحت ترفرف بأعلامها علي ربوع الفراغ .. تغذيها تلك الأجواء الآسنة ، البعيدة عن ســـاحة التدريـــب أو المواجهة .. وقد ساعده علي ذلك ، ضابط التوجيه المعنـــوي ، وتلـــك النخبة المثقفة من أعضاء الفصيلة .. ثم جاء الختام بما لم يكـــن فـــى الحسبان .. فقد جاءت الأوامر بانتقال الوحدة لاحتلال المواقع الرئيســية المتقدمة .. الأمر الذى زاد روحه المعنوية اشـــتعالاً ، فقــد أيقــن أن لمواجهة قادمة لا محالة .. إلا أنه لم ينعم طويلا بدفء الجبهة ، ومـــا تحدثه من فعل السحر علي صفحة حياته الحافلة بصنوف متناقضة من السقطات ، والانتصارات .. حيث تقرر – بلا مقدمات – تسريح دفعته ، وعودتها إلي الحياة المدنية .

بعد عودته إلي عمله بإدارة قضايا الحكومـــة .. أمضـــي قرابـــة الشهرين ، من السنبلاوين إلي المنصورة ذهابا وأيابا بقلب خاو .. لـــم يكن قد الف بعد ، متعة الهدوء ، والأحاديث الموشاة بطبقة سميكة من آداب " الأتيكيت " .. لم يتسلم عمله الحقيقي .. وكانت تحوطه ، من كـل جانب ، وجوه جديدة عليه .. محدودة الملامح ، والطموحات .. تتحـــدث همسا .. لم تألف صراخ المواجهة .. كان يصرخ فى وجوهـــهم - ليـل نهار - بلا ملل .. وبطريقة أثارت ضجرهم .. أحبائي بالجبهـــة .. كنـــا بالسويس .. أكلنا .. شربنا .. الجفرة .. الروبيقي .. الشالوفه .. العوايـد.. استراحة الدكروري .. عدنا ولم نعد .. طلعنا .. نزلنا .. عبرنا .. رجعنـــا.. السيل .. الغرق .. الموت جوعا .. الشبع إلي حد التخمة .. مـــاذا تراكـم فاعلون يا أحبائي ..لستم ذاك الحمل الوديع ..

- أصمت .. أصمت .. كفاك صراخا .. ماذا ترانا فـاعلون .. أمـــامك الجهاد الأكبر يا سيد " إسماعيل " كما قـــال الرســول عليـــه الصـــلاة والسلام..

ملحوظة هامة لآخر :

- ألم تتزوج بعد يا " إسماعيل " فاتك القطار..

ساحة نكسته القديمة قريبة .. يمر عليها فى الذهاب والعودة .. بـــلا أي إحساس بالخذلان .. فقط تحرك فيه وخز إحساس بالذنب تجاه وجـــه تواري بعطفه " برقه " .. وجه أعطي بلا مقابل .. عطاء وثقة بلا حدود..

يكفي تألقه الماثل بالذاكرة .. برغم أني لم أقرر .. ولم أجبر بعد علي أن أقرر..

وهاك تلميح آخر من الأم .. لا يمكن أن يفوتك..

- ذاهبة أنا إلي جيراننا الجدد .. البنت " سماح " أبنتهم طالبة فـــى بكالوريوس زراعة .. تريد مني بعـــض الحبـــوب .. لازمـــة .. يعنـــي للمذاكرة..

هذا شأنك وشأنها .. كالخارج توا من رحم الأم .. كان مـــا يـــزل ، قابضا بتلابيب الجبهة .. وثبتت رؤية الشهر الكريم .. باكر الصـــــوم .. بهجة .. صراخ أطفال بالشارع .. وحوي .. يا وحوي .. هزيج مذيـــاع.. رمضان جانا .. وفرحنا معاه..

-أمي .. كم عام مضى ولم يجمعني سحور واحد بكم ؟ .. سأســـهر حتى الفجر..

- يجعله شهر كريم ومبارك علينا وعلي أمة المسلمين..

الأب بحبور :

- يا ابني لا تحسد نفسك .. هل يحسد المال إلا أصحابه ؟! ..

أول أيام البهجة .. برقية عاجلة .. سرى .. سلم نفسك لوحدتـــك فوراً .

المخــاض

(١)

آخر ضوء .. وصلت العربة .. أفرغت حمولتها ومضت فى هـدوء.. صمت مريب لا يكسره إلا أصوات موتـــورات... آليــات ومجــنزرات تتناهى عن بعد ، لوحدات توالي عملية احتلال ليلي .. وتعديل أوضاع.. طريق اقتراب سهل .. مدق جانبي ، لا يقطعه أيه خنادق مواصلات أو أسلاك شائكة .. مراكز الملاحظات ، تقدمت لاحتلال الســاتر ، المطــل علي صفحة المياه .. بجــانب وحـدات أخــري للمشــاة ، والقــوات الخاصة .. بعض الوحدات المدرعة ، تربض دباباتها بــالحفر أســفل المصاطب .. ملجأ كيماوي أو أكثر عن مسافة خلفية لا تتجاوز أكثر من أربعة كيلو مترات .. سبق المرور عليها .. متى تم هــذا .. البعـد عن الجبهة أنسانا الكثير .. ما كل هذا التكدس .. أليس هذا خطرا..

– أنتظر يا دفعة .. هنا يمكن أن تسأل هناك أفراد خدمة .. فكرنــي.. نسيت كلمة السر..

– تسأل من يا وحش .. نحن هنا ..

هذا الصوت ليس غريبا .. دهش " إسماعيل " :

– آه .. من .. " مثال محلول " .. وأيضا " سعد عبد التواب " مــاهذا الهناء .. ها ها ها .. ها عناق .. قبلات حارة..

– أين باقي الزملاء ؟..

– هناك بمركز الملاحظة الجديد .. مع قائد السرية .. يوالون رصــد تحركات العدو بأجهزة الرؤية الليلية..

أشار بيده لنقطة قريبة..

- اتركني لهم .. وعليك يا وحش توصيل باقي الزملاء .

هاك هم الرفاق المخضرمون .. لم يصدق أحد عيناه .. هب الجميـــع وقوفاً .. معانقا .. باكيا .. ألم مصحوب بالنشـــوة .. ســـهر .. ســـحور.. ذكريات ، قريبة ومؤثرة..

- لماذا استدعيت .. هل حضرت باقي الدفعة .

- مثلي .. مثلكم .. لا أعرف .. لعله يكون الهدف..

أشار بيده نحو الضفة الشرقية..

- لا .. سمعنا أنه مشروع تعبوي..

- كله خير .. أشعر بأن حقبه ثقيلة طمست .. أنتـــهي التخبــط.. والضياع..

اليوم : الخامس من أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعون .
الوقت : مساء

موعد المؤتمر .. لم يحضر قائد الكتيبة من قيـــادة اللـــواء بعـــد.. ننتظر .. ماذا ننتظر .. الطعام أم قائد الكتيبة ؟ .. ارتباك ظـــاهري فـــى أعمال الشئون الإدارية .. يا ناس الصبر جميل .. لم نتسحر من الأمس.. ليتنا صمنا .. لكنها الأوامر .. بالأمس جاء الإفطار جاف .. علبه واحـــدة للعبد الفقير إلي الله ، توزع علينا الساعة العاشرة مساء .. أنا الـــذى لا يكفيني فطيرتين من الفطير المشلتت .. ها ها .. هاى .. هل سنعبر .. كل الدلائل تشير إلي .. أبطلوا هذا ، واسمعوا هذا .. مشروع تعبـــوي .. من قال ..

لغط صراخ .. قهقهات .. رهبة انتظار .. ونظرات تنفذ إلي القلـــب ، بلا واسطة .. سمع همس .. القائد " محمد لبن " يدلي بتحذير:

– عربة نصف جنزير تتجول أمام النقطة القوية .

– لعلها توزع الإفطار .. ولا يهمك يا أفندم سنركبها بعد قليل .. لم يبق إلا أن تصدر أمرك ها ها ها .. هاى

إقتراح من " أحمد رشوان " و " السيد صادق ضابطا الموقع :

– نخرج فى العراء نتجول قليلاً .. يا سلام كدنا نختنق .. أعضـــاء فصيلتك عندهم عيب واحد الثقة الزائدة بالنفس .. يعتـــبرون أنفســـهم مثقفين ، وأحق بالقيادة منا... لذا فإنهم ليس عندهم ضبط ولا ربط..

– الثقة ليست عيبا .. ثم أنك لم تجربهم .. أنهم من أحسن العناصر التى تعرف مسئوليتها وتلتزم بالضبط .. لا يغرنك هذا المـرح .. فهو لأغراض رفع الروح المعنوية..

– غداً سنري..

طال المسير حتى كلت أقدام الجائعين .. قال " إسماعيل " :

– أخاف أن نبعد... والمؤتمر علي وشك الانعقاد ، بين ساعة وأخرى .. علينا أن نعود .

– هاهي العربة المجهزة فى انتظار قائد السرية ، لنستريح فيها قليلاً .

كانت جلسة غير عادية ، فاض فيها الثلاثة بذكريات قل أن يبوحوا بها وجاء دور " إسماعيل " سيق إلي منعطف الذكري بنفس راضية.. فقد ناء قلبه بما يكفي .. ولم يكن فى حاجة لسؤال " أحمد رشوان " .

– وأنت يا " إسماعيل " ألم تفكر فى الزواج .. فى غضون الفترة القصيرة التى سرحت فيها..

– الكل يسألني نفس السؤال .. قلبي لم يزل حائرا .. لا أريد أن أتزوج إلا عن حب .. برغم أني خسرت موقعة هامة فى هذا المجال.. إلا أني لن أستسلم ، وسأظل فى انتظار مواقع أخري..

لأول مرة يقدم اعترافاته... بلا خجل أو تحفظ .. فاض ، وأنفعل إلي حد البكاء .. لم يكن يدري ما الذى أوصله إلي هذه الحيرة فى مواجهة ضعفه .. لم يتوقف إلا بعد أن قطع خلوتهم ، الجندي " حسن سعد الدين "..

– قائد السرية أرسلني للبحث عنكم .. لأن قائد الكتيبة وصل.. والمؤتمر علي وشك الانعقاد... ثم ابتسم وهو يناولهم لفافة ورق .

- ها كم أفطاركم ، أتيت به من الشئون الإدارية الخاصة بي..

كانت اللفافة عامرة بالخبز الشمسي " الجراية الصعيدي " .. وأقراص الطعمية .. وقد تلقفها القادة الأصاغر بنهم..

* * *

كان قائد الكتيبة بادي التعب والإرهاق .. بادرهم علي عجل .

- لا أريد أن أعطلكم عن راحتكم .. فقط نراجع معا إحداثيات وبيانات خطة الأهداف المدبرة .. وقبل كل شئ أريد تمام أفراد ، ومعدات السرايا..

- تمام السرية الأولي..

- تمام يا أفندم .

- هل هناك أعطال ؟..

- لا يوجد..

- تمام السرية الثانية

- تمام يا أفندم

- تمام السرية الثالثة

- تمام يا أفندم

تمت المراجعة ، والتأكيد علي المهام .. عند الانصراف أستوقف القائد " إسماعيل إمام "

- اخترتك لترافق الموجات الأولي للعبور .. لتشكل لنا مركز ملاحظة متقدم ، لأن لك خبرة سابقة .. أختر معاونوك الآن .. وأفضل أن يكون واحدا تخففا من المسئولية .. ما رأيك فى الرقيب معاون قائد السرية ؟..

- تقصد " سعد عبد التواب " .. سأتشاور فى الأمر وأعطيك التمام باكر..

- لا يهم هو أو غيره .. سترافقك وحدات أخري للمشاة والقـــوات الخاصة .. وأرجو أن تعطيهم التمام فى أقرب فرصة .. المـــــهم أجـــهز بنفسك..

- أذن هو العبور ..

- حتى هذه اللحظة .. لا أستطيع أن أعطيك كلمة .. سيأتي الأمـــــر فى وقته المناسب..

اليوم : السادس من أكتوبر

الوقت : صباح عادي .. هادئ مشرق..

الجندي " حسن سعد الدين " يلاحقه بالحاح من ليلة الأمس :

– لم تجب علي سؤالي ؟..

– ليس هذا وقت

– لا بل وقته .. أشعر بأن شيئا خطيرا سيحدث اليـــوم بـــالتحديد.. الحديث كثر عن العبور ولا أريد أن أظل فى المؤخرة كما يقولون .. كل الإشاعات تقول أني من العناصر الزائدة عن الحاجة .. وســـأبقي فـــى المؤخرة .. إذا حدث هذا فسوف أنتحر..

– وما فى هذا .. المعاونة فى توصيل التعيينات والذخـــيرة مـــن الأشياء الهامة..

– بل أريد أن أرافقك – أنت بالذات – خطوة بخطوة كمقاتل..

فكر لماذا لا يكون هو ؟ .. وكانت الفكرة بمثابـــة الصدمـــة لقـــائد الكتيبة لم يشأ أن يفصح عنها .. فقط وضحت علـــي وجهـــه علامـــات التردد والقلق..

– مما تخشى يا أفندم..

– أخشى عليك منه .. فهو أحمق .. قد يورطك فى أخطاء أنت فـــى غني عنها..

– أعرفه جيدا .. هو رجل بمعني الكلمة ، لم يفهمه غيري .. لـــذا فهو يريد أن يلازمني..

– كنت أفضل الرقيب معاون قائد السرية كما سبق أن قلت .

– وما حاجتي إليه .. لن نحتاج إلي تخته .. تقديراتي ستكون حسب البانوراما الحقيقية للأرض ولا يلزمني سوي مساعد قـــوي البنيـــة.. بارع فى أعمال الدفاع المحلي..

ثم بتهكم :

– ويستطيع أن يستخدم قبضته إذا لزم الأمر..

– علي راحتك .. وأرجو أن يظل الأمر سراً حتى آخر لحظة

كان ذا آخر تلقين .. بعد الخروج مـــن لـــدي قـــائد الكتيبـــة كـــان فى انتظاره زميلاه "أحمد رشوان " و " السيد صادق " .. أحاطاه بشـوق ومرح .. و كأنه غاب دهراً..

– أيه أجازة

– ليس بعد..

– يا رجل قل .. نحن نعرف معزتك عنده

– هل ستذهب خلال الأجازة إلي حبيبتك " هنومة " هذه التي قلـــت عنها أنها تعمل سمكرية .

– بسرعة أصبحت حبيبتي .. قلت أن قلبي لم يزل موصدا .. ثـــم أن أسمها ليس " هنومة " ولن أبوح لكم به .. ما دام الأمـــر قـــد أصبـــح عندكم مثاراً للسخرية..

– سمكرية يا رجل .. هاتها تصلح أعطابك .. دائما تقع قرعتك فـــى الخائبة .. من ابنة مقاول إلي أبنة سمكري .. وبهذه السهولة .. أرحنا.. هل ستلتقي بها فى الأجازة القادمة..

– يوما ما سنلتقي كلنا هناك

وأشار إلي السماء

– المهم الآن نحن لم نتسحر .. ولن نظل علي صومنا وقد أمرنـــا الصدر الأعظم .. كما يقول " حسن سعد الدين " بالإفطار .. وأنا أشـــعر بجوع..

– وماذا تقترح .. نحن أيضا جوعي..

– أقترح أن أذهب بنفسي لأتيكم بخـــبز وطعميـــة .. مـــن قـــري المنطقة.

لم يشأ أن يخبر الجندي " حسن سعد الدين " بمـــا أســـتقر عليـــه الأمر، حتى لا يطير الخبر بين أرجاء الكتيبة .. فيحدث رد فعل عكسي.. وتعلل باصطحابه لاحضار الطعام والسجائر ليقضي له بالأمر فى هدوء وسرية..

(٤)

نفس اليوم العظيم .

الوقت : الساعة الثانية وأربع دقائق بالتمام بعد الظهر .

المكان : الميول الخلفية للساتر المواجه للفواصل بين النقط القوية للعدو .

العمل جاري علي أشده فى تجهيز القوارب المخصصـــة لإبحـــار عناصر المشاة ، والقوارب الخاصة ، ونقط ملاحظة الأسلحة المشتركة للمترجلين .. فجأة تشق عنان السماء أسراب من المقاتلات والمقـاتلات والقاذفة .. إلي اتجاه الشرق علي ارتفاعات منخفضة تنحني لها أعظـم الرؤوس شجاعة .. دقيقة واحدة وبدأ عزف التمهيد النيرانى من كافــة ألوان المدفعية والصواريخ والهاونات .. قطع لا يمكن حصرها توالـــي الرمي المباشر والغير مباشـــر علـــي كافـــة نقـــط العـــدو الحصينـــة واحتياطياته القريبة ومرابض مدفعياته ومراكز قياداته .. خـــط مـــرور الطلقات يوالي ذبذباته فوق الرؤوس .. تصاعد الدم الحار إلي وجـــه " إسماعيل " .. ارتعشت أطرافه بطريقة أخجلته .. تأمل الجندي " حســـن سعد الدين " .. وجده يقف مشدوها ، كشـــجرة باســـقة ، معلـــق فـــى أغصانها سترة الفلين والـ " آر بي جي " وحقيبة مقذوفاته ، والقنـــابل اليدوية .. وجربنديه المهمات والتعيين .. قال لنفسه :

" مقاتل بمعني الكلمة " .. ثم خفت الارتعاشة قليلا .. تأمله ضـــابط وجنود المشاة المرافقين :

– هذه ساعتكم يا أفندم .. أما هنا فنحن لها .. أطمئن .. سنوصلك بأمان إلي المكان الذى تستطيع منه مراقبة أهدافكم .. ستجد الأرض كلها مفتوحة أمامك كمركز ملاحظة .

– علي خيرة الله..

فى تمام الثانية والثلث بدأ دفع القوارب ، على نغمات التكبير المدوية .. وطويت صفحة المياه بأسرع مما توقع " إسماعيل " .. فقد كان الحماس فى ذروته .. فتحت الثغرات فى حقول الألغام .. وأصبح الساتر المواجه ملغما بالعناصر المترجلة .. وحبال التسلق ، وحبال الجر توالي دورها فى رفع الأفراد ، والأسلحة الخفيفة .. صواريخ مضادة للدبابات ، والطائرات ، ومدافع ب ١٠ ، ب ١١ يتم نقلها بالجر .. ذخيرة تعبأ فى عربات جرد يدوية بعجل كاوتشوك .. لا شئ يعجز عنه البشر .. هاك الأعلام ترفع .. هل ستتوه مني المهمة ، وسط هذا الهدير .. ماذا يقول عني " حسن " كقائد .. بعد ذلك .. هاك هي المجموعة لم تنسانا .. تأخذه المجموعة لتبة معزولة فى العمق القريب .. تجهز له خطة فى الدفاع المحلي .. أحد عناصرها الرئيسية الجندي " حسن سعد الدين " الذى يربض فى أحد الحفر كأسد .. بانتهاء احتلال نقطة المراقبة .. أنتهي التمهيد النيراني .. مرت فترة مشحونة بالقلق .. الجندي " حسن سعد الدين " يقترب :

– ليس هذا مكاني يا أفندم .. أريد مشاركة أبطال المشاه .. دمي يغلي .. لقد بدأوا فى محاصرة النقطة القوية " تبة الملاحظة " التى كانت تبدو لنا كجبل من الشاطئ الآخر..

– أصبر يا " حسن " .. أنهم يعملون تحت ستر قذائفنا..

لم تمض سوي ساعتين وأتاهم – من أفراد الدفاع المحلي – خبر بتمام الاستيلاء علي " تبة الملاحظة " .. صرخ " حسن " بأعلى صوته:

– ألم أقل لك يا أفندم .. هؤلاء ليسوا أبطالاً بل شياطين..

أتت إشارة ببدء المساعدات النيرانية .. أنشغل " إسماعيل " عنــــه بإبلاغ بياناته عن الإحتياطيات القريبة للعدو ومصادر نيرانه .. ومراقبة سقوط الطلقات ، علي الأهداف .. والإبلاغ عــــن تأثيرهـــا .. أنســـحب " حسن " لحفرة الدفاع المحلي وهو غير راضي ، تمام الرضى .

منتصف الليل تقريبا .. " إسماعيل " يبلغ مــــن مركــز الملاحظــة المتقدم :

– مجموعة كبيرة من المركبات المضيئة تتقــدم علــي محــور " الجدي " ..

المدفعية توالي قذائفها .. كتيبته تقع صواريخها بدقة علي تقـــاطع طريق الجدي – الشط ، بدقة لم يسبق لها مثيل .. أوقف التقدم .. يبـدو أن الخسائر أكبر مما كان يتوقع .. عدد من المركبات توالي الــتراجع.. تقدم نحوه الجندي " حسن سعد الدين "..

– لثاني مرة تترك مكانك ، فى مثل هذا الوقت الحــرج ، أعــرف إلحاحك عند الطلب .. ماذا تريد يا " حسن " .. أقلع عن رعونتك .. حتى نكون أصدقاء..

– هذه المرة أريد مؤانستك .. لن أزعجك بطلب مشاركة المشــاه.. فالوقت غير مناسب ، وقد قدمنا لهم الأن مساعدة لا يمكن أن يحلمــوا بها .. تصور يا أفندم ، ماذا يدور بخلدي فى هذه اللحظة .. لقد أرقنــي الشوق " لأم رجب " .. لقد ضايقتها كثيرا .. ولم ترمني أي ريق حلــو.. إذا عدت لها سالما سأجعلها سيدة السيدات .. سأستقيم وأستقر .. لـــن أعود لقيادة السيارات .. هناك قطعة أرض بالمطريــة عرضــها علــي صهري .. سوف أشتريها وأقيم عليها مسكنا ومشروعاً عبـــارة عــن محل عصير..

– أترك أحلامك تلك ، لحين زوال الغمة..

اقتربت خيوط الفجر ، ولم يزل " حسن " يفضي بأحلامـــه لقـــائده الذى كان يقاوم النعاس ، ولم تزل أيضا التبه " المســـحورة " إحـدي النقاط القوية فى مواجه الفرقة ، علي عنادها ، لم تستسلم بعد .. كانت الاشتباكات دائرة هناك ، والمقاومة علي أشدها وكانت تصلهم أصـوات الانفجارات ووميض الطلقات ، كلحن صاخب ، يهدأ ليعاود الاشــتعال.. الآمر الذى أشعل قلق " إسماعيل " .. حاول " حسن " أن يخفف من حدة توتره .. قال :

– ألا تريد أن تأكل شيئا .. سأسخن لك علبة عدس .. ما رأيك ؟

– كما تحب..

تجرع " إسماعيل " رشفتين .. ثم لم يستطع أن يكمـــل ، فأعادهـــا شبه كاملة .. الآمر الذى أثار دهشة " حسن " فازدردها لفوره ، ليثـــب له شجاعته فى هذا الميدان أيضا .

الخامسة صباحا .. يهل علي " إسماعيل " القائد المشرف علي مجموعات الدفاع المحلي والكمائن..

– هيه كيف الحال ؟ .. ضرباتكم أفادتنا .. وجعلتنا نتحرك في أرض شبه خالية .. خبر سيفرحك .. " المسحورة " الآن علي وشك الاستسلام .. فقط يلزمنا بعض الكمائن ، لتعزيز قوة الاقتحام ، وقطع طرق الاقتراب .. سنضطر لخفض قوة أفراد الدفاع المحلي لمركز الملاحظة يكفيك هنا فرد أو أثنان .. فالمنطقة هنا في أمان .. سمعت أن عندكم جندي مدفعية ، يريد المشاركة .. هل توافق ؟ .. أين هو

رد " إسماعيل " بقلق وتردد :

– عندك بحفرة الدفاع المحلي .. يمكن أن تأخذوا رأيه .. ومن جهتي أنا موافق..

– ولا يهمك العملية بسيطة ، الأولاد مصممين علي دك " المسحورة " .. وأنا لا أستبعد أن يتم هذا خلال ساعات .. فزملائهم قاموا بأعمال خارقة في مواجهة " تبة الملاحظة " ، والأخبار التي وصلتهم عنها أشعلت الحماس .. تصور قائد فصيلة يقتحم النقطة من ثغرة في جهة اليسار ، قبل تطهيرها من قبل أفراد المهندسين العسكريين ، الأمر الذي مكن أفراد الفصيلة من عزل النقطة القوية ، والاستيلاء عليها بسرعة .. ورقيب أخر يلقي بنفسه علي أحد المزاغل لإسكات نيرانه ، التي كانت مؤثرة علي قوة الاقتحام مانعا طلقات العدو .. وأحد الجنود يبتكر وسيلة مدهشة لنقل الذخيرة – بعد غرق

قاربه – علي جركن مياه فارغ .. دفعة أمامه سـباحة حتـى أوصلـه للزملاء .. هل هذا كثير عليهم .. أقصد " التبة المسحورة " .. أطمئـن علي بطلك .. وسوف أعيده إليك بنفسي..

– لا لست خائف عليه .. أنه جندي علي استعداد للانتحار .. إذا لزم الأمر..

أفضي له قائد المشاة بكل ذلك .. ثم غاب عنه هنيـهات .. وعـاد يصطحب معه ثلاثة أفراد .. منهم الجندي " حسن سعد الدين " .. الـذى لوح له من بعيد بسعادة..

فرد " إسماعيل " علي إيماءاته مازحا :

– أين حديثك عن " أم رجب " .. هل ذهبت أدراج الرياح..

– وهل متنا .. أطمئن يا أفندم سأعود إليها .. راكبا دبابة..

ولم يعد " حسن " بل مر عليه القائد فى تمام الساعة الثانية بعـد ظهر السابع من أكتوبر ليخبره علي استحياء بتمام استسـلام " التبـة المسحورة " ، واستشهاد البطل .. وختم قوله بتردد :

– أطمئن لقد ركب فعلا دبابه هاربه ، ولكنه تعجل ودمرها .. وقـد كتبنا عليها أسمه بالدم لتكون شاهدا علي قبره .. فعلا أشهد بأني لم أر جنديا فى جرأته..

وأبلغ " إسماعيل " بأسي عن سقوط شهيد له مكانته فى قلبه .. ثم لم يستطع أن يسيطر علي نوبة من البكاء الهسـتيري .. سـقط علـي أثرها مغشيا عليه .

اليوم : السابع من أكتوبر .

الوقت : الفصل الأخير لنهار صاخب .

المكان : بالقرب من معبر الشالوفة .

تجمع جنود الوحدة الفرعية ، من كتيبة صواريخ الميدان ، أرض / أرض ، بين أحراش مبتله من الشاطئ الغربي للقناة ، انتظارا لدورها في العبور .. الأرض المتموجة تعلوها طبقة من أملاح " الكلس " الهشة .. استثارت جلبة الجنود الهابطين على المكان ، أفواج البعوض الساكنة ، فانطلقت تحوم وتطن - في غير موعدها - لتبحث لها عن مأوي آخر ، فوق جلد الوجوه التي يعلوها الغبار اللاصق ، والتى باتت لا تعبأ بأي لسع أو طنين ..

طائرات العدو توالي محاولاتها الفاشلة ، في إرباك أعمال المهندسين العسكريين بالمعابر .. لكن حائط الصواريخ ، لا يدع لها الفرصة .. شرائط من الدخان الأبيض لصواريخ سام .. تلاحق ذيول الطائرات .. في مشهد جديد عليهم .. البعض يلقي نصيبه والبعض الآخر يلقي حمولته ، كيفما أتفق ،ويولي الفرار .. هدوء ، ثم محاولة .. ثم هدوء ، في نسق أصبح مألوفا على مدي يومان..

صدر الأمر بالانتشار ، منعا لحدوث إصابات جماعية ، لدي أي هجوم مضاد طائش من طائرات العدو أو مدفعيته .. بعد تمام الانتشار -وعلي الفور - تشكلت منهم حلقات متآلفة ، عمرت بها تلك البقعة ، الصعبة التضاريس ، والتى أضحت - بقدرة قادر- أشبه بقرية من

قري الغابات الأفريقية .. كانت أبرز تلك الحلقات ، مـــا كـــان يســمي " بفصيلة المؤهلات " فقد كان أغلبها من الجنـــود حملـــة المؤهـــلات العليا .. وهي فصيلة للتوجيه ، وإدارة النيران ، عقل الوحدة المدبـــر.. علي مألوف عاداتهم – فى الأوقات الصعبة والعصيبة – عقدوا السامر المسائي ، وكأن اللحظات القاسية التى تمور فى أعماقهم ، تتـــداح – بشكل أرادي – لتعيدهم إلي عالمهم الملئ بالأحلام والطموح .

افتقدت تلك الحلقة .. قائدها " إسماعيل أمام " الذى عـــبر بـــالأمس مع الموجات الأولي للمشاة ، ليشرف علي إدارة النيران من العمـــق.. والذى ظل علي اتصال بهم عبر موجات اللاسلكي طيلة الأمـــس ، ثـــم إنقطعت أخباره عنهم ، الجانب الأكبر من نهار السابع مـــن أكتوبـــر.. الأمر الذى خلف العديد من التكهنات .. كانت بمثابة السحابة السوداء ، الوحيدة ، التـــى تطفـــو علـــي ســـماء ســـامرهم .. أراد أن يزيحـــها " عبد الله سلطان " من طريقهم ، ليغطي علي قلقة بالمرح :

– وحشنا القائد القانوني..

صدمه رد من " محمد عمران "

– إلهي تكون وحشه دائمه..

قطع " علي الدمنهوري " عليه الطريق بقوله :

– أصمت يا شيخ .. فال الله ولا فالك !!

تلعثم " سلطان " وهو يقول :

– كيف يا رجل ، وأنت الذى قلت فيه بعظمة لسانك أنـــه الرجـــل الوحيد الذى جمع شملنا ، فى فصيلة واحدة بعد طـــول شـــتات بيـــن السرايا ، ورئاسة الكتيبة..

تمادي " عمران " باستخفاف مرير :

- كيف يفضل علينا جاهل ! .. وهو العاقل .. أيعبر بصحبة " حسن سعد الدين " !! .. معنى ذلك أنه لا يقر بكفاءتنا .. وليس بعيدا أنه أفهم قائد الكتيبة بذلك..

ثم بأسي :

- " حسن سعد الدين " الجندي الذى لا ضمير له .. ماذا أفاد الكتيبة ، طول مدة خدمته !! .. بلطجه .. مشاغبات .. أيريد أن يصنع من مجرم بطلا ؟! .. آسف يا سادة .. هذا الرجل لا أفهمه .

أكمل له" سلطان " بمرح ، معني غائبا

-هو مراسلة لا أكثر .. اعتبره حمار يحمل أثقال القائد .. هل كنت ستقوم بنفس المهمة ؟

وحتى تنقشع السحابة التى وضح أنها - شأن اليهود - تصر علي زيادة رفعتها القاتمة... أنبري " صبري عبد الجواد " بعناد ، ليقطع مسالك الحديث الشائك بصوته الرفيع الدافئ .. فى وسط دائرة التجمع ، وأمال " جركن " المياه الفارغ علي احد جوانبه المسطحة ليصنع منه " معزف " وهمي .. ترنم بأنغام حالمة " لام كلثوم " يعرف كيف يجيدها ، وأبدع فى إيقاعات اللحن... عندما بلغت الألحان ذروة الهيام ، شق الفضاء صوت أزيز مباغت .. وأنصبت دفعة من " الألف رطل " علي قمة تبه " رأس العبد " التى تقع فى مؤخرة نقطة التجمع.. لم تقع خسائر أو إصابات تذكر ، وأحدث الانفجار زلزالا بتر سيولة اللحن ، وآهات الإعجاب .. احتضن " سعد عبد التواب " - معاون الفصيلة - ملف الوثائق فى رعب .. سقطت من بينه علي غفلة إحدى صور زفافه الحديث كان قد دسها به - خفية - بعيدا عن أعين الزملاء ، ليعيش معها، أبان لحظاته الخوالي .. أنقض عليها فى لهفة

ليعيدها إلي موضعها .. إلا أن أعين رفاق الســـلاح ضبطتـــه متلبســا وتأملتها بإعجاب مشوب بالحسد .. أصابه خجل ، وارتبـــاك ، أســـلمه لحركات وأفعال لم يكن يقصدها بالمرة .. صمد للحالة المفاجئة قدر مـــا استطاع ، ورفع الصورة إلي وجهة متحديا نفسه .. بعد فـــترة صمـــت قليل .. أفتعل قدر من المرح ، لا يتناسب وقشـــعريرة الخـــوف التـــى ألمت به..

– آه .. لكم أتوق لقبله من هاتين العينين ، قبل الموت..

صاح " علي الدمنهوري " :

– لتعش مع أحلامك تلك .. بعد زوال الغمة .

اعتدل " محمد عمران " من وضع الرقود علي الجنب ، إلي الوضع نصف جالس .. وتملكته الرغبة فى المزاح :

– هس .. لقد زالت الغمة ، من لحظة يا سادة .. مر عليكم " آخـــر ميعاد " .. اضبطوا ساعاتكم التالفة ...

ثم وهو يشير إلي السماء :

– يا لحزني .. هرب " عبد الله البطئ " بجنده هذه المرة..

ضحك " عبد الله سلطان " وهو يكمل له مزحته :

–حقيقة لقد ألقي " عبد الله البطئ " تحية المساء ، وهو فى عجلـه من أمره .. لكن بقي " أبو جاموس " .. ســـوف يمـــلأ آذاننـــا بخـــواره المنفر ، قبل أن يسلم جفنيه لنومه الملئ " بـــالكوابيس " المرعبـــة..

ملحوظة :

" لنا هنا وقفة .. أن أسم " عبد الله البطئ " هو ما يطلقونه تنـــدرا علي آي طائرة من طائرات العدو ، و " آخر ميعاد " هي أخره طـــائرة

منها تحوم مساءا .. أما " أبو جاموس " مدفع للعدو ، فرنسي الجنسية، ذاتي الحركة ، من عيار مائة وخمسون مليمتر .. .

بعد أن أفاق " صبري عبد الجواد " من دهشته .. لعبت به شـياطين الفن مرة أخري..

ثرثر بانفعال :

– لن نقتل أنفسنا انتظارا لصراخ هذا الوغد... يبـدو أ، شـياطين الموت أطبقت علي فمه الأعوج .. ثم وهو يعتدل ليبدأ نقـرة الخفيـف علي سطح " الجركن " .

– لنعد إلي سمرنا يا رجال .. لنعد إلي سمرنا..

وأنزلق " عبد المنعم ماضي " إلي ساحة الحديث بعد طول صمت:

– أوقف الغناء يا صبري .. لنطرق قليلا حديث الأحلام .. مـا زال أمامنا وقت طويل يا سادة حتى يأتي دورنا .. ماذا لو بدأنا بـالقصص والحكايات الجادة !! .. الموقف فى حاجة لتأمل الغاز الحياة والمـوت.. هذه هي المناسبة بعينها .. ما بالنا لا نبدأ بالحديث عن الحب .. قل يـا " سعد " قصتك مع عروسك .. قل .. كيف بدأ طريقك معها ؟..

اعترت " سعد عبد التواب " مسحة من خجل مؤلم .. بـالرغم مـن ذلك فقد ابتسم :

– آه .. كم كانت السبل إليها موصدة .. لم أقل لكم أنها تعمل معيدة بقسم التعدين..

صمت توجسا لابتلاع الريق ، واستيضاح الأثـر علـي الوجـوه المشدودة إليه .. مرقت بالجو قذيفة حادة شقت أرجائه فـي عنـف.. أحدثت دويا مألوفا لديهم .. لم يأبه له أحد ..أنخرط حديث السـمر إلـي لغط متشابك ، يجمع ما بين جد وهزل ، فى سيمفونية محببة ..

– ها قد عاد" أبو جاموس " إلي خواره المزعج..

– قلت لكم ليس هذا وقت الحب .. أنها الحرب يا سـادة .. مـهما حاولتم التغابي عن واقعكم .

– وقعت الواقعة .. ليس لها..

صمت " عبد الله سلطان " ريثما ينجلي الأمر ، فقد أدرك بحسه أن القذيفة التالية ستأتي وشيكا ، وفى الأثر..

بعد زوال الهزة اليتيمة تساءل " الدمنهوري " فى لهفة :

– أين التالية يا سادة .

رد " محمد عمران " :

– لا تهتم .. أنها مجرد عزف منفرد لآلة خربة .. يحملها كذاب زفة " حسب الله " ها ها آي .

سرت عدوي الضحك بين جماعة السمر .. وكانت الضحكات تحمـل فى طياتها أوجاع الترقب .. بعد انقطاع معزوفة الضحـك المتوجـسة للحشد المترقب ، نفرت ضحكة بعيدا عن " الاوركسـترا " واسـتطالت وحيده ، بإصرار علي مط اللحن الموجع ، الذى مات لتـوه .. كـانت ضحكة " مثال محلول " .

ملحوظة :

" لنا هنا وقفة أيضا .. أن الأسم لآدمي منهم يدعـي " عبدالمنعـم ماضي " ، وليس لفرضية فلسفية أو رياضية .. وقد أطلق عليه تنـدرا فى إحدى ليالي سمرهم الخوالي .. لعله لصيقة به .. فإنه ما أن يبـدأ بينهم حديثا عارضا فى أمر من أمور حياتهم ، حتى يعرج صاحبنـا – دون أن يعي سببا واضحا لذلك – إلي مثـال شـبيه بالواقعـة محـل

الحوار، يأتي به من جعبة عامرة بالعديد مـــن التجـــارب الحقيقيـــة ، والمتخيلة ، ويحول إليه عنوة دفة الحديث .. " .

أنتظر " سلطان " ختام المعزوفة ، ورجفت أهدابه فى دهشة :

– عيني .. يا عيني !! .. أراك تضحك .. دابة من ماتت اليوم .. مـــاذا عندك يا سيد " مثال " ..

أراد " مثال " أن يأخذ سمت الرجل الهازل .. اعتدل فى جلســـته ، ومط رقبته ، ثم تنحنح كضيف برنامج " تليفزيونـــي " ليضفـــي علـــي الكآبة مسحة من المرح .. بصدق كان يحاول ، إلا أن جعبتـــه ، هـــذه المرة كانت حافلة بما هو أعمق من التندر والمزاح..

– ما أشبه الليلة بالبارحة يا سادة .. أحم .. أحم..

حاول صبري أن يقوده إلي مزالق المرح ، طمعا فى تحطيم أصنام أمثلته ، التى تصطنع لهم طوق من الأغلفة الجادة ، التى لم يعد لـــهم صبر علي احتمالها .. ورغبة منه فى الانطـــلاق لســبر غـــور متعـــة مؤقتة ، قبل مواجهة الموت .. انتصب واقفا وأعاد " الجركن " الفـــارغ إلي وضعه الواقف .. ونفض عنه ترابا وهميا بطرف من كم ســـترته.. سوى له مجلسا .. اعتلاه .. تحلقوا حوله .. أعطي لـــه يـــدا تحمـــل " مايك " وهمي للتسجيل – علي عادة الإذاعيين – قرب القبضة مـــن فمه – بحركة تهريجية – سرت عدوي الضحـــك .. تنحنـــح " مثـــال محلول " – مرة أخري – قبل أن يواصل :

– آه .. لقد أمسكت بطرف الخيط فجـــأة .. هـــذا الـــذى نـــاورني وداورني طويلا كي أصل له .. ماذا كنت أقول يـــا أولادي .. آه .. آه.. تذكرت " ما أشبه الليلة بالبارحة " .. نعم أنه لصحيـــح .. وهـــذا الـــذى

تسمعونه يخور صورة تافهة لشيء كنـــا نملكــه أســمه " الغــول "..
حكايتي – هذه المرة – ستكون عن" الغول "..

واجهته عيون مشوقة مستفسرة .. وهمهم صوت مداعــب ، مــن جوف الدائرة ، المشدودة إليه بكيانها :

– وماذا عن أمنا " الغولة" ؟!

لم تساند الصوت ضحكة .. توارى خجلا .. واصل " مثــال " دون أن يعبأ :

– نحن لم نطلق عليه هذا الأسم ، بل الذى أطلقـــه هـــم الأعـــداء أنفسهم..

– كيف ؟!

تساءل " عمران " فى دهشة .. وأردف " مثال " :

– لنبدأ من البداية الصحيحة .. أنتم تعلمون أني من " المنصورة"

زام " عمران " فى نفاذ صبر :

– كف عن الاستطراد السخيف .. هذه مقدمات لا معني لها .

واصل " مثال " :

– صبرا .. صبرا يا رجال .. أنها قصتنا نحن .. وأني لأتأمل الأشياء فأجدني عاجز عن إضافة المزيد ، كعادتي .. أنالا أدعي أننـــا غدونـــا أبطالا بالسليقة .. انسياقا للنعرة الكاذبة .. بل أنه التـــاريخ .. ولســت سوي راو أمين لأحداثه وعبرة..

بإصرار هتف " عمران " :

– لتعد إلي" غولك " مباشرة يا " مثال "..

دون وجل بقي " مثال " علي عناده :

– أصر علي تكملة ماتسمونه استطرادا..

باغته " عبد الله سلطان" بمزحة أقرب للقذف منها لدعابة .. دون أن تفارقه سخونة لذعات التشوف :

– ها قد بدأ الهازل الأجوف بتفوه حكما..

لطمه حزن كاد أن يفقد معه القدرة علي الاحتمال .. انقلبت أهداب عينيه ترجف بلا انقطاع ، كأنما أصابها خلل ، ففقدت القدرة علي التوقف .. لكنه – علي أي حال – ابتلع المزحة ، التى ظنها إهانة فى حقه .. إلا أنه ألقي نفسه – علي غير توقع – محور اهتمام حقيقي من الآخرين ، حتى ذاك الذى يصر علي مناوشته بالمزح الثقيلة .. ووجد أن اعتلائه لمنصة وهمية ، أن هي إلا منبر حقيقي .. نسي الموقف للحظات .. وصعد درجاته فى تؤده ، غير مألوفة منه .. التفت إليهم بعقل شارد ، وقلب شدة الوجد كصوفي بلغ حد الذوب..

أني أراني ، وقد عدت أدافع عن بلدي " المنصورة " التى هي مسقط رأسي بالذات ، والتى بها حبيبتي .. التى أهيم بها عشقا ..آه .. لقد نسيت أن أحدثكم قليلا عن الحب .. كنت قد تركت ذلك لزميلي المقاتل " سعد " .. وأسلمت له أذني فى شغف .. لكنه خلي بي ، وأوقف لحنا تغلغل لأعمق أعماقي .. لم أرتو منه .. آه .. لكم يحدوني الشوق إلي ركن البال الخالي فى حضن حبيبي .. لكنها الحرب يا خوان.. وهاكم بلدتي " المنصورة " تمور بالقلق انتظارا لقدوم فيالق المغيور.. الذى اجتاحت جيوشه علي غفلة منا مدينة " دمياط " وتتقدم حثيثا صوب بلدتنا .. علي مشارف دارنا .. ونادي المنادي ، حي علي الجهاد.. حي علي الكفاح ، فى دروب المدينة ، وحاراتها ، وعلي قمم المآذن ، والمرتفعات .. وصحونا بعد غفلة ، نطل علي شاطئنا .. لنشهد حشودا من جيوش " لويس التاسع " ذلك الذى كان يدعي قديسا .وقد غطت

الأفق علي الشاطئ المقابل لبحر " أشموم طناح " .. كانت عيبه في حقنا .. لم ننتظر .. شحذنا الهمم .. وركب موجه النضال ذاك الذى يدعي " الأمير فخر الدين أبو يوسف أبن شيخ الشيوخ " ، فأن مليكنا السلطان " الصالح نجم الدين أيوب " كان لم يزل قابعا في قصره ، يكابد فى شجاعة ويلات مرض قاتل .. وأخبار الأنسحاب المباغت لحماية " دمياط " تحدث آثارها المميتة علي غضون وجهه الشاحب .

كان الأفق فى مواجهتنا يطالعنا كل يوم بحركة نشاط غير عادي لعسكر الفرنجة ، وهم يدقون معاولهم بهمة ، لانجاز حفر الخنادق ، والسواتر الترابية حول معسكرهم .. هالنا الأمر ، ولم أكن وقتها قد بلغت السن القانونية للتجنيد فى الجيش النظامي .

قاطعه " عبد الله سلطان " بقفشاته :

- الأخ آخذ الحكاية جد .. جيش نظامي !! .. هل ولدت وقتها..

رد " صبري عبد الجواد " .. وهو يهز قبضة يده لأعلي كالقابض علي " المايك : الوهمي :

- دعوة علي مزاجه .. يا أخوان .. هذا نوع من الفن الراقي الذى لا يعرفه سوي " مثال " الملتزم .. تريدون عجين الفلاحة حتى تشيعوا تهريجا .. نرجو التزام الهدوء الإرسال علي الهواء مباشرة .. أيها السادة .. من الجبهة ، نتابع الأحاديث الشيقة ، علي أنغام الضربات المدمرة

ها ها .. ها ها آآى..

قال " سعد عبد التواب " بحماس :

– هذا فعلا فن لم أسمع أرقي منه .. هو أدري منا بعبر التاريخ ودروسه وله أن يحكيه علي الوجه الذى يراه .. اكمل يا " مثال ".. اكمل .. وسأحدثك عن الحب أن كان لنا عمر..

أكثر من صوت أدلي بتعليق واحد :

– يا شيخ .. ألا يكفي الدرس الذى أمامنا..

أكمل " مثال " بنفس الدرجة من الانفعال ، دون أن يطرف له جفن :

توالت اجتماعاتنا فى دار " أبن معجل " صاحب الافضال والهمة الفائقة لتدبر الموقف .. هل ننتظر إعادة تنظيم الجيش النظامي ؟!.. لماذا لا نبدأ ؟! .. وتوالت غاراتنا الليلة .. وكان من النادر أن ترجع أيدينا فارغة من رقبة أسير ، يساق كالدابة فى استعراض للعامة..

وذات يوم باغتنا " ابن معجل " بحركة بارعة ، علي قارعة نهار أبلج ، وفى ضوئه الباهر ، بأن أفرغ محتويات بطيخة ، وأدخل فيها رأسه ، وجعل بها متنفسا – غير منظور – لأنفه .. وأنسل إلي الشاطئ المقابل .. فما أن قرب من مواقعهم ، وظنه أحدهم غنيمة مرية ساقها إليه رب البرية .. ونزل ليتناولها ، اختطفه " ابن معجل ، وعام به وسلمه لنا ، ونحن بين مصدق وذاهل .. أدهشت الحقيقة عقولنا ، وأوقدت فينا جمر الجهاد .. إلا أن الأيام لم تمهلنا ، فإنه بعد أن وضح للعيان ما آلت إليه جيوشنا من استقرار ، بعد إعادة تنظيمها ، بقيادة الأمير " فخر الدين " ، وبعد أن بلغت أفعالنا – نحن العامة – قمة الاستفزاز ، بقياد " أبن عجل " عمد الفرنجة لاستعراض القوة ، وبدءوا الأمر بجس نبض قواتنا النظامية الرابضة بمعسكر " جديلة "

علي الشاطئ الغربي .. وجاء الرد سيل مـــن التراشـــق بالمقذوفـــات " السهمية والمنجنيقيه " . فأدركوا ألا فكاك من المواجهة الحاسمة .

وصحونا ذات يوم علي مهندسيهم ، وهم يشرعون بهمة فى بنـــاء جسر خشبي تمهيدا للزحف علي مدينتنا .. وتفتقت أذهان مهندسينا عن حيلة بارعة .. فبعد أسابيع ، والعمل فى الجسر ، قـــائم - علـــي قـــدم وساق - من جانبهم .. قمنا نحن - من جانبنا - بتوســـعة الشـــاطئ ، من ناحيتنا ، بحفر قناة جانبية ، قامت بجرف المياه إليها ، فأخذت فـــي طريقها البناء الشامخ .. واتت عليه فى يوم احد..

جن جنون القديس المغرور ، فعمد إلي إقامة برجين هائلين ، لكـــي يتاح لهم ركوب الميدان ، ومراقبة قواتنا ، عن كثب - للاستمرار فـــي المشروع الفاشل .. مستخدمين فى ذلك أخشاب بعض سفنهم الجانحة ، بعد تلك الخسائر الفادحة التى منوا بها فى الأخشـــاب التـــي جرفتـــها المياه .. وهنا يأتي دور المدفعية الثقيلة .. ونصبت المجانيق المصرية ، التى تربو علي الستة عشر ، والتى كان بينها ذاك الذى سماه الفرنجـة فيما بعد" بالغول " .

كنت إلي هذه اللحظة أجيد الرماية ، وتوجيه المقذوفـــات .. شـــئ كان يسري فى دمي -من زمن - منذ بدأت أتدرب علي صيـــد الطـــير بالنبال ، بين ربوع حقولنا .. كان يجذبني ، ويمتعني مشاهدة كـــل مـــا يتعلق بالمقذوفات بعيدة المدي .. وحين علمت بالأمر شـــدني خـــاطر ، لأن أنزلق بين عسكر الأمير " فخر الدين " .. دنوت لأشهد عـــن قـــرب تمام الاستعداد... لم يمنعني أحد، ووجدت غـــيري مـــن الحرافيـــش ، والعامة يختلطون بالعسكر ، فى تلاحم رائع .

كان الحرافيش يساعدون العسكر فى نقل اسطوانات نحاسـية لـم أشهد لها مثيل ، ويقومون بتجنيبها خلف " المجانيق " .. قمت بنقلـها معهم .. زعق فى أحد العسكر ، بصوت صارم ، حين رآني بينهم :

- الهمة يا ولد .

استعرضت قسمات وجهة فى حذر .. وجدته مبتسما صبوحـا ، ولا يشى بشئ من التسلط أو عنهجية الأمر .. شجعني سمته الحنون علـي أن أخوض معه حديثا يروي غليلي .. ويطلعني - بطريـق مباشـر - علي أسرار هوايتي..

كان دوري أن أضع أسطوانتي الثقيلة ، خلف صـرح شـامخ ، يمت لهذه " المجانيق " بصلة كبيرة وأكيدة ، ولم يكن مثلها بالتمـام .. بعد أن وضعت حمولتي .. ابتسمت له ، وشرعت فى سؤاله .. قلت وأنـا أشير لهذا الصرح :

- ما هذا ؟!

جاءني الرد :

- أنه مالا يبقئ ولا يذر .. يأتي علي الأخضر واليابس .. يلتهم كـل شئ ، ويقول هل من مزيد..

- هي أذن احاجي ؟!

أردف باتسامه مضيئة :

- بل هو " الغول " بعينه .. أقوي ما لدينـا مـن آليـات نرجئـه للضرورة .. وها قد أتي اليوم .. عجبت للأمر .. قلت وأنـا أشـير إلـي الأسطوانات النحاسية الهائلة :

- وما تلك ؟!

– مقذوف يسمي " النار الأغريقية " .. أنها الدمار لـــهم .. فـــهي تحوي مزيجا من النفط ، والزيت والكبريت ، مجمد بنوع من الصمـــغ القابل للاشتعال ، لدي أي اصطدام بجسم صلب..

تأملت الأنابيب ، فوجدت لها فم ، فـــى مؤخرتـــها ، توقـد منـــه لدي قذفها من مدفع " المنجنيق " .. استهواني الأمـــر .. وملـــك علـــي لبي .. قلت:

– هل تأخذني معك عند الاشتباك لكي أساعد فى توجيه النـــيران.. أنا أجيد ذلك..

شرحت له بعض حيلي فى قياس الزوايا ، وتقديـــر المســـافات.. بهرته حركاتي .. وتملكه العجب .. فلم يتطرق إلي ظنه مـــدي حذقـــى.. قال وهو يقلل بالقدر من دهشته :

– لك الحق .. فنحن ندافع عن الحق .

إستخفني الطرب .. وظللت أتردد علي الموقع ليل نهار ، انتظـــارا لاشارة البدء .. إلي أن كان اليوم المشهود ، وأخذت علي عـــاتقي إدارة نيران " الغول " بالتعاون مع العسكر ، ويا لهول الفزع الذى شـــهدوه علي أيدينا .. تهاوي البرجان فى لمح البصر ، وراح مشروع الجسر – الذين وضعوا فيه جل آمالهم – أدراج الرياح .. جن جنون الفرنجـــة، وأنهارت الروح المعنوية لقواتهم .. وبلغ اليأس بالملك " لويس " حـــدا قاتلا .. فقد كان اللهب المندلع من اسطوانات " اللـــهب الاغريقيـــة " ، والتى لم يكن لهم سابق علم بها جحيما لا يمكن إخماده .. ينتشر فـــى الأرجاء بسرعة خارقة ، تجعل ما حولها أتونا مستعرة .. حتى ظنـــوا بها غضبا من المولي عز وجل ، لذنوب اقترفوها فى حقه .. فجعلـــوا يبتلهون إليه ابتهال المتضرع الذليل .. وكنا نسمع طرفا من صلواتهم،

وابتهالاتهم .. وهاكم أحد الخونة يطالعنا يوما بوجهــه الكـالح، وهـو يدلهم علي مخاضة ضحلة بالقرب من مواقعهم عند قريـــة" سـلمون " التى تقع منا علي مرمي البصر ، وماذا كان منه ؟! .. لقـــد أغـروه ببعض القطع الذهبية البيزنطية ، ثم عادوا وخلوا به ، وجندلوه .. بعـد ما أتوا علي ما كان يحمله من معلومات عن " طوبوغرافية " الميدان.. مات البدوي الخائن ، ولم تنفعه قطعة الذهبية .. وهذا جزاء عادل لكـل خائن لوطنه..

وما ظن هؤلاء الأوغاد ؟! .. لقد عادت إليهم الروح ، وبدأوا فـــى التخطيط بهمة لهجوم خادع كاسح ، بطليعة الفرسان .. لأحداث ثغـــرة بين صفوفنا ، وإشاعة قدر من البلبله ، والفوضي ، ريثما تعيد قـــوات المشاه بناء الجسر للعبور تدعيما لمفرزة الفرسان المتقدمة .

وكان أن تقدم فرسانهم بقيادة الأمير المغرور " الكونت دار تـــوا" شقيق ملك الفرنجة ، الذى عبر المخاضة بقواته وتوجه صوب أبـــواب المدينة .

بوغت الأمير " فخر الدين بن الشيخ " وكان لم يزل فى الحمـــام.. فخرج معجلا ، ولم يستكمل عدة حربة ، ووثب علـــي ظـــهر فرســـه ليواجه فلول الجيش الغازي .. وقد أبلي بلاءا حسنا .. صال وجال .. إلا أن جنود الفرنجة – بعد طول مداورة – تمكنـــوا مـــن النيـــل منـــه ، واستشهد بطلا .

بعد احداث قدر من البلبله بمقتل " الأمــير فخـــر الديـــن " توجـــه الكونت " دارتوا " علي رأس قواته صوب القصر السلطاني للاشـــتيلاء عليه ، والبحث عن الأسلاب وكانت قد سرت بالمدينة اشاعة قاتلة عن

موت مليكنا " السلطان الصالح أيوب " .. ولا يعلم شيئا عمن يدير دفـــة الأمور ، الآن .. اهتزت النفوس ، وساءت الأحوال قليلا..

كانت المفاجأة فى انتظارنا .. فقد أنبثق للتو فى ساحة الأحـــداث ، بطلا نصبته الجماهير قائدا لمسيرة العامة ، والحرافيـــش ، وجيـــوش المسلمين المحاصرة .. ذاك هو الفارس الأسمر " ركن الديـــن بيـــبرس البندقداري " الذى رأى بثاقب فكرة أن بداية هجوم الفرنجة لم يكـن إلا " مفرزة " متقدمة للقوات الضاربـــة بالشـــاطئ الشـــرقي .. محصنـــة بالسواتر ، والدشم .. لذا فإنه توفيرا لجهد القـــوات العـــاملة ، عمـــد إلي استخدام عدد محدود من فرق المماليك البحريـــة للتعـــامل مـــع " المفرزة " .. وجعل منها كمينا علي هيئة كماشة قاتلة ، لا يمكـــن أن تخطر ببال قائدهم الذى استخفه الطرف للنصر المؤقت..

ثم أصدر القائد الشعبي أوامره المشددة بمنع التجـــول ، وإغـــلاق المحال ، والأبواب والشبابيك .. حتى بـــدت المدينـــة أشـــبه بـــالقصر المهجور مما أغري " المفرزة " علي التقدم الأهوج فوقعت فى أتـــون الكمين .. وعلي الفور عادت الحياة إلي مدينتنا ، وهبت عن بكرة أبيـــها ترمي فلول القوات الهاربة ، بكل ما تصل إليه الأيدي مـــن حجـــارة ، وأثاث ، وأواني نحاسية .. وأبيدت طليعة الفرسان عن آخرها ، وكـانت من خيرة شبابهم .. ولقي الأمير " دارتوا " مصرعه .. وكانت ملحمة..

نعود إلي " غولنا " .. كان قد أصابه بعض العطب ، علـــي أيـــدي فرسان " المفرزة " .. لم يتمكنوا منه وكيف لقزم أن ينال مـــن صـــرح شامخ كهذا ؟!..

امتدت الأيدي المدربة ، تعالج خدوشه بحنان زائد .. وكان ليـــدي شرف الذود عنه ، لأدخره ليومنا الأغر..

كنت قد بلغت مبلغا من الدربة والحنكة .. حتى أني كنت أستطيع فك وربط اجزاءه كاملة .. وساعدني بلوغ السن أن أتقدم رسميا للقائد الأسمر ، طالبا الأنضواء تحت لواءه .. أجبت لطلبي .. وأصبحت في قائمة المعسكر .. حتى كان يوم الموقعة الكبري .. وهاكم ترون بأعينكم عظم روحنا ، وفائق همنا .. صه .. أنه النداء .. لنسمع يا سادة .. كفي صخبا .. أنظروا .. أنهم عسكر لويس " وقد تولاهم الفزع ، بعد هزيمة ، ووباء ، ومجاعة وتشرد .. الزموا الصمت ، حتى نسمع الأمر بالتقدم .. سوف يأتي الأمر وشيكا .. لنبدأ فى تعقبهم حتى يعلنوا استسلامهم..

صمت الجميع .. تعالي الصوت فى الأرجاء العريقة يدوي :

- هدف مدبر .. أرفع الشبك .. عندما تكون جاهز .. أضرب .

كانت القصفة التمهيدية ، تعلن بداية عبور القوات المتحفزة..

علي غير توقع دوي عديد من الانفجارات ، لدانات ثقيلة بالقرب من حلقة السامر .. كالحالم تساءل " مثال محلول " بشئ من الدهشة :

- مم .. ما .. ما هذا ؟

انفجرت الضحكات من القلب ، هذه المرة ، لتطمس معالم ضجيج الانفجارات ، من سطح الفضاء المحدق بهم .. رد صوت من جوف الحلقة بثقة :

- لا شئ سوي أن " غولك " ابتلع كل شئ .وما زال يأتي على المزيد .. وهذا الذى أمامنا - فى الشرق - ما زال يصرخ كثور ذبيح.. وأن خفت صوت خواره..

بعد زوال الغمة .. دوي الصوت - مرة أخري - فى قوة موشاة بنشوة عارمة :

- أجمع..

تأكد للجميع أن الصوت لقائد الكتيبة .. هرولت الحلقــــات صـــوب مصدر الصوت .. تشكل قطار بمواجهة القائد ، علـــي هيئـــة ســـرايا.. فى صفوف غاية فى الانضباط والحماس .. أنبثق الصوت عميقا هــــذه المرة :

- المعبر جاهز .. التحرك علي هيئة " قول " بالفواصل .. فصـــائل ادارة النيران فى المقدمة .. الله معكم يا رجال .. الله أكبر..

دوي فى الأرجاء هزيع الصوت الجماعي يشدو بالتكبير .. من وقدة انفعال عارم ، احتبس الصوت قليلا .. ساد الصمـــت لمـــدة وجـــيزة.. ثم عاد ليأمر :

- استعد .. أركب..

تحركت فصيلة إدارة النيران علي رأس " القول " .. وكانت مركبـــة جماعة الاستطلاع ، بقيادة " مثال محلول " تشرف علي مدخل معـــبر " الشالوفه " .. استوقفها " اللـــواء " قـــائد المجموعـــة ، الـــذى وقـــف لاستعراض قواته والشد من أزرها .. تأمل الوجوه الصارمة مليا وشـــد علي يد " مثال " فى مودة صديق .. قال وكأنه فوجئ :

- من عبد المنعم ماضي ؟! .. كيف حالك يا رجل ؟ .. أراك جنديـــا فى كامل استعداده .. أذن فهو يعرفني تمام المعرفة من زمن .. أنا عبـــد المنعم ماضي !! .. القيادة نفسها لا تعدني " مثال " ، أو رقما فى حشـــد مغمور .. بقي لكم أن تعوا ذلك جيدا أيها الأحبة الشياطين .

ابتسمت عيناه .. أطل برأسه من النافذة الخلفية " لكابينة المركبة، ليلقي بنظرة أخيرة علي زملائه من الجنود .. ثم تألق وجهـــه بانفعـــال عارم من الدهشة والفرح الغامر..

رفع يده بتحية التمام للقائد ثم أشهر أصبعى السبابة والوســـطي علي هيئة الوضع " سبعة " وتحركت طلائع القول .

الساعات الأولي من الليل .. الشاطئ الشرقي للقناه يلوح للأعين لأول مرة .. رعشة انبهار .. المركبات توالي تدفقها بانتظام بمساعدة جنود المهندسين العسكريين ، والشرطة العسكرية .. منظر مروع.. بعض الدبابات ، والقواذف الصاروخية .. والمركبات منغرزة علي المزلقان بسبب الروبة الناتجة عن فتح الثغرة بمضخات المياه في الساتر .. الأرض رخوة لكن أمكن التغلب عليها بفتح مدق عليها من الحجارة والأتربة الجافة التى زادت من صلابتها .. الطريق صعب وطويل .. لكن كافة المحاور تم التعرف عليها بالبيارق والعلامات ، وأفراد الشرطة العسكرية ، الذين يلوحون بالأزرع إلي الاتجاه الصحيح .. " مثال محلول " لا يجد – فى جعبته العامرة – شبيها للمشهد .. يمكن أن يدخره لأمسيته المفتوحة .. فقط حمد الله فى سرة ، أن اجتاز بسلام ، عقبة الروبة ، والأرض الرخوة .. الاتجاه إلي منطقة انتظار أمامية .. الأمر يبدو أسهل بكثير من طرق الاحتلال التى تدرب عليها بالمشروع .. لم يكلف نفسه عناء أخذ رصده للنقط المساحية أو مراجعة أحداثي .. الكل يسير فى خط مرسوم ، ومدبر بعناية .. أخيرا منطقة الانتظار .. القائد " إسماعيل إمام " ينضم إليهم .. ما هذا ؟! كأنها غيبة شهور .. فى غمار الفرحة تنقشع السحابة .. وتتواري خجلا أفكار " عمران " الثائرة .. ومناصروه .. وتبدأ بهمة أعمال تجهيز حفر الدفاع المحلي ، والحفر البرميلية ، للوقاية من الضربات الجوية .. بعدها يتصدر " إسماعيل " منصة أمسيتهم المفتوحة .. ليحدثهم من بين

دموعه عن مآثر الجندي المنبوذ الذى قضي نحبه ، قبـــل أن يفهمـــه زميل واحد فى فصيلة المؤهلات .. بعدها حل صمــت وقـــور ، قطعـــة صوت نشيج مكتوم ، لم يستطع " عمـــران أن يبعـــد بـــه عـــن آذان الزملاء فانسحب بحذر ، وهو يواري خجله ، بين دهشة الجميع .

الأيام : من الثامن إلي العاشر من أكتوبر .

مساعدات نيرانية متنوعة ومؤثرة – وعلي محـــاور مختلفــة – للعديد من وحدات المشاة والمدرعات التى كانت تقـوم بتوسـيع رأس الكوبري استعداداً لدفع لواءات أخري لتطوير الهجوم شرقا .. وقد تمت تلك المهام المتعددة دون خسائر تذكر فى الأفراد والمعدات .. إلـــي أن تم عبور مركز قيادة الفرقة الرئيسي اليوم الحادي عشر من أكتوبــر ، واستمرت القوات فى تعديل أوضــــاع الاحتــلال والتمســك بــالأرض المكتسبة ، وتوسيع رأس الكوبري الخطــوة تلــو الخطــوة بــإصرار وتحدي .

اليوم : الثاني عشر من أكتوبر .

تعرضت القوات لقصف مركز من طيران العدو ومدفعيته .. وتوالي قصف المعابر بالمدفعية بعيدة المدى ، وقــد خســرت الكتيبــة ثــلاث شهداء هم ضابط الموقع " أحمد رشوان " ورقيب أول الســرية وأحــد الجنود بالموقع .. كما دمرت العربة المجهزة وحدث عطل فنـــي بــأحد القواذف وبالرغم من هذا الهول ، فقد تمكنت فرقتي الجيش من توحيد رأس كوبري جيش بعميق أثنى عشر كيلو مترا .

اليوم : الثالث عشر من أكتوبر .

أمر بالعودة إلي منطقة الانتظار للانضمام علي قوة اللواء المــدرع الذي كان يستعد للعمل كمفرزة متقدمة للجيـــش الثــالث الميدانـــي.. لتطوير الهجوم علـــي ممــر متــلا .. بعــد تمــام الاحتــلال حضــر

" إسماعيل إمام " آخر تلقين للقادة الأصاغر ، وأعطي تمام الفصيلة .. لقائد السرية ، ثم لقائد الكتيبة .. وتم التأكيد علي المهام .. التي نقلها بدوره إلي " فصيلة المؤهلات " عبر أمسية صامته بدى فيها الإرهاق والتعب .. وآثار قلة النوم علي الوجوه .. وقد خيل إليه فى تلك اللحظة التي لم يعترضه فيها أي سؤال أو استفسار ، أن كل واحد منهم قد أوشك أن يصبح عالما قائما بذاته ينوء بحمل همومه .. فقد انتهت أيام المرح .. لذا فإنه قد أفاض فى شرح المهمة لشد اهتمامهم حول بؤرة جديدة قد تكون فاتحة لأمسية شهية تزيل قدراً من همومه وأحزانه.. التي أطاحت بالبقية الباقية للرغبة فى النوم..

– يا سادة .. أرجو أن تفهموا أن هذه المهمة ضمن خطة لتخفيف الضغط علي القوات السورية .. لأنه قد تبين للقيادة العامة أن العدو منذ بدء القتال يركز جهوده الرئيسية علي الجبهة السورية لقرب القتال هناك من الأراضي الإسرائيلية .. الأمر الذى يهدد العمق الإسرائيلي بصورة مباشرة .. .

– لم يعلق أحد كأن علي رؤوسهم الطير .. فقط قال " مثال " علي سبيل المشاركة :

– ذاك هو التضامن بحق .

اليوم : الرابع عشر من أكتوبر .

الوقت : السادسة صباحاً .

أجري التحميل علي الوجه الأكمـــل ، الاصطفـاف أخـذ تشـكيل الانتشار .. " إسماعيل إمام " علي رأس الفصيلة فى مركبة الاستطلاع.. السادسة والربع أسراب من المقاتلات و القاذفات المقاتلة تمرق مـــن فوق الرؤوس .. تمهيد نيراني مركز لمدة ربع ساعة من كافة أعـــيرة مدفعية الميدان .. وصواريخ تكتيكيـــة أرض - أرض تخلخـل هـواء المنطقة محدثة رجة تنخلع لها القلوب .. السادسة والنصف بدأ الفتـح فى تشكيل ما قبل القتال .. الوحدات تنطلق علي محور " متلا " بسـوعة نموذجية .. القرص الأحمر للشمس يوالي إطلالته الســاكنة علـي ذاك الموكب الصاخب ، المغطي بهالة من الغبار الأصفر .. أطل " إسماعيل " باندهاش ليري قطيعا من الغزلان ينطلق بذعر فى اتجاه الهجوم إلـــي مصير لا يعرفه ، وقد أحس أن شبكة عنيدة قد أحاطته من كل جانب ، ولم تترك له ثغرة .. آه لو أستطيع أن أتي تلك المنطقة ، فى وقت غير هذا .. حاول أن يشد السائق لبعض خواطر مجنونة ، لـــيزيل قلقـة.. ماذا لو طاردنا ذلك القطيع المذعـــور ؟! .. وجـده منصرفـا ، بكـل أعصابه لهدفه .. خجل من نفسه .. ياه لقد أبطأت العربة من ســـيرها.. تاه القطيع !!..

- ماذا حدث ؟!

- المنطقة كلها كثبان رملية لا تصلح للتقدم .. إلي أين المسير يـا أفندم .. أري بعض الدبابات ترتد.. ياه .. لم يبق إلا هـذا !! .. العجـل يدور علي الفاضي .. أخشى علي الموتور..

توقفت العربة .. نزل " إسماعيل " يستعرض المنطقة بقلق .. أطـل بنظارة الميدان وجد وحدات المشاة والمدرعات ، قد فتحت فى تشـكيل قتال .. كمائن عديدة من الدبابات وعربات الصواريـخ " أس أس ١٠ ، أس أس ١١ " للعدو تشتبك بعنف مع قوات النسـق الأول للـهجوم.. تعجب للأمر .. لم يكن يتوقع هذا .. المنطقة شديدة الوعـورة ، وتكـثر بها الغرود الرملية وشجر السيال .. وماذا عن الموقع .. يـاه .. لقـد توقف هو الآخر علي مقربة منا .. نزل أفراد الفصيلة .

- يا أفندم لن نستطيع أن نتقدم خطوة .. القتال بـدأ .. والدانـات تنهال من كل جانب .. يبدو أننا سنفتح تشكيل قتال هنا..

- كيف نفتح تشكيل قتال ونحن فى مرمـي النـيران .. ومراكـز الملاحظات منضمة علي المواقع بهذا الشكل .. دقيقـة أذهـب إليـهم مترجلاً لاستوضح الأمر..

اعترض السائق :

- لا يا أفندم لابد أن نعود سويا بالعربة لن أتركها هكذا فى العراء لتدمر .. ثم خلع سترته وأخذ يجمع بها قطعا من الزلط .. ويضعها أمـام إطارات العربة .. ثم أدار الموتور ، وتحركت العربة بمساعدة دفع أفراد الفصيلة الذين كادوا يرفعونها من علي الأرض .. وتوالي الدفع حتـى وصلوا إلي موضع وقوف السرية .. بلغ السيل الزبي .. عنـد وصولـه إلي منطقة توقف السرية .. وجد أن حال الموقع أسوأ فقـد انغـرزت تماما كافة عربات الذخيرة ، وقاذف أو أكثر .. فى الكثبان الرمليـة ..

ولم تفلح جهود الأفراد إلي فاقت طاقة البشر ، فى إنقـــاذ الموقــف.. وبالرغم من ذلك فإن المحاولات المضنية ، لم تتوقف تحـــت إرهــاب الدانات المتساقطة بالقرب منهم .. التقي " إسماعيل " بقائد السرية :

– ما هذا يا أفندم !! .. هل سنحتل هنا ؟!

– لقد كان قائد الكتيبة هنا منذ قليل .. شاهد الموقــف .. وأمرنـــي بالفتح .. لم يبق أمامي سوي تعديل أوضاعي .. ليمكن عمل اخفاء جيد.. وهذا ما يقوم به أفراد الموقع..

– الظاهر لي .. أنا وقعنا فى فخ .. سبحان المنجي..

– سنشتبك وندافع بأقصى طاقاتنا .. لن نمكنهم من شبر إلا فـــوق جثثنا .. عليك الآن اختيار المكان المناسب .. لإعطائي بيانـــات دقيقـــة لمصادر نيرانهم .. وسنري..

لم تتمكن السرية من عمل الإخفاء الجيد كما يجب ، لكثافة نـــيران العدو .. ومع بدء الاشتباك ، توالت هجمات العدو الجوية علي الموقع ، فى كثافة لم يروا لها مثيلا منذ بدء القتـــال ، ممـــا أحـــدث ارتباكـــا ، وأصيب أحد القواذف من دانة مباشرة لأحد الدبابات .. وقد كــــان فـــي حالة تعمير كامل .. والطاقم فى وضع التأهب للضرب .. وقد سقط شهيد واحد من طاقم القاذف ، وأصيب الباقون إصابات مختلفة .. وقـــد قـــام " إسماعيل " بمساعدة باقي أفراده بإخلائهم علي متن عربة من عربات موقع المشاة القريب .. وفى تلك الأثناء أمر قائد السرية بفـــرد شـــباك التمويه علي القواذف وشاحنات الذخيرة ، للحمايـــــة مـــن الـــهجمات الجوية .. وبدأ فى تنظيم أعمال التجهيز السريع للحفـــر الأســـطوانية . وقد ساعدتهم طبيعة الأرض علي سرعة الإنجاز .

انتصف النهار ، دون أي تطور يذكر فى أعمال القتال .. فقط تمسك بالأرض المكتسبة بكل وسائل الدفاع عن النفس .. وكان الموقف عبارة عن ، هجمات جوية مركزة ورد بمدافع مضادة للطائرات محملة علـــي عربات مجنزرة .. وأيضا بالصواريخ المحملة علي الأكتاف .. مشاكسات من الكمائن .. ورد بقذائف الصواريخ .. وفي غمار المعارك الضاريـــة وردت إليهم أنباء باستشهاد قائد اللواء المدرع ، أثر هجمة جويـــة.. مما كان له أكبر الأثر فى النفوس .. ثم حدثت هجمة جوية مباغتـــة ، أصابت عربة ذخيرة ، تسببت فى انطلاق الصواريخ ، وتفتتها ، فـــي اتجاهات شتي تفرق علي أثرها الأفراد منطلقيـــن بحثـــا عـــن أمـــاكن الاحتماء خلف الغرود الرملية المتجمعة حول جذور شجر السيال .. وقد حاول " إسماعيل " الابتعاد عن منطقة سقوط الذخائر المتفجرة .. أثنـــاء انطلاقه سقطت ، فى اتجاهه ، دفعة من الألف رطل ، أحدثـــت دفقـــه شديدة من الهواء طرحته أرضا .. أصيبت الخوذة بضربة من الخلـــف اقتلعتها فى لطمة شديدة للوجه .. أطاحت بأي قدرة له علـــي الإدراك.. أظلمت الدنيا أمام عيناه لفترة لم يعرف مداها .. ثـــم بـــاغتته رعشـــه كصعقة تيار كهربى .. اهتزت لها كافة خلاياه .. وأفاق علي أثرهـــا.. بعدما أفاق .. وجد بعض القنابل الزمنية ، توالي انفجارها المزعج مـــن كافة الأجناب ، وعلي فترات متقطعة .. كانت الشظايا ترف فى الآفاق ، كأسراب طيور متنقلة .. وثمة آدمي أو أكثر ملقي ، دون حراك ، علـــي مقربة .. من هذا .. من هؤلاء ؟! .. لعله كـــابوس .. حـــاول باســـتماتة الابتعاد عن منطقة الانفجار .. لم تستجب أطراف الجانب الأيسر لجسده المنطرح بالكامل .. ثمة ألم غير واضح المعالم ، مصحوب بخدر شـــديد يزحف ببطيء إلي أعلي منطقة الوعي الذاهل .. الذى لم يستطع إيقاظه

إيقاظا تاما .. الفخذ والساق اليسرى ينتفخان رويدا رويـــدا .. بطريقـــة جعلتهما يصلان إلي منطقة الإحساس ، علي شـــكل " جـــوال " ملقـــي بجانبه .. لم تكن له به أدني علاقة سوي ذلك القيد الذى يربطــــه بـــه كعضو لم ينفصل بعد .. غريزة الدفاع عن نبض الحيـــاة تفعـــل فعلـــها بقوة .. واتته ومضة من ومضات اليقظة المباغتـــة ، جعلـــت الجـــانب الأيمن يحمل جواله بقوة ، ويلقيه مع كامل الجسد علي بعد أمتار مـــن أماكن الانفجارات .. صرخ بصوت لا علاقة له به بالمرة :

- النجدة .. أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله..

تحسس فخذه وساقه اليسرى .. صدمته نافورات الدم المتدفق علي شكل نبضات لها وقع الطرقات علي طبلة الأذن .. انقشعت الغشـــاوة ، وتيقظت كافة الحواس .. هاك هي شجرة " السيال" علي مقربة .. ثمـــة ذراع يلوح له بإصرار علي طلب الاقتراب .. اسقط رأسه علـــي الأرض علامة العجز التام .. أطل رأس الأخر من خلف الكومة المحيطة بجـذور الشجرة .. يستطلع معالم المنطقة حوله .. ثم هب لنجدته .

الفصل الثالث

الميلاد

قال الضابط الطبيب :

– كتب لك عمر جديد .. أنت أحسن من غيرك بكثير .. تماسك يــــا رجل .. بقي عملية بسيطة ، ستجري لك بمستشفيات القاهرة .. أبسط يا عم .. اجازة مفتوحة .. نحن فى انتظار عربة الإسعاف..

اجازة مفتوحة !! .. إلي هذا الحد .. هل سيترك الجبهــة .. قبــل أن يكتمل تطوير الهجوم .. أنزعج " إسماعيل " .. أنه بعبوره لـــم يخــرق قانونا .. بل كان ذا نتيجة طبيعية لطاقـــات طــال حبســها .. والآن لا يستطيع أن يكمل .. لا .. لم يبق إلا هذا أيضا .. هذي بندقيتي ، لم تــزل علي كتفي .. تحسسها باندهشا .. تشبث بمقبضها .. حاول أن يعتدل فــى رقدته .. لم يستطع .. نهره الضابط الطبيب بنظرة لوم..

– لا أفهم سببا لتشبثك بهذه .. عليك أن تتركها ليستفيد بها غــيرك علي الأقل..

حال يقظته ، بذلت محاولات عديدة لتخليص البندقية الآلية ، مــن وضعها المتقاطع علي كتفه ، باءت جميعها بالفشل .لـــم يــدع لــهم الفرصة .. واجههم بهياج .. أوقفت المحاولات ، مراعاة لحالته .. بعــد فترة صمت .. صرخ بسخط :

– أريد أن أفهم أولا .. هل عدنا للنكسة ثانيا ؟!

– لا شئ بالمرة أهدأ .. أريدك أولا أن تتناول هذا القرص .. وتــأكل تلك القطعة الصغيرة من " الشــيكولاته " .. وتشــرب هــذه الجرعــة

البسيطة من " اللبن " .. بعدها تعرف كل شئ بوضوح .. هل هذا كثير.. ستعرف أننا لم نخسر .. بل كسبنا سلامة أمثالك..

فى تلك اللحظة مرقت مجموعة من الطائرات فوق دشـــمة العنـــبر تماما ، علي ارتفاعات منخفضة .. لا حققتها فى سعار أســـلحة الدفـــاع الجوي المحيطة بالمستشفي الميداني .. وسقطت دفعة من المتفجـــرات علي مسافة قريبة .. زلزلت أعمدة الأسرة .. حل الصمـــت بـــالجميع.. استعرض " إسماعيل " أجساد الجنود المتناثرة حولـــه علـــي الأســـرة والأرض ، بنظرات ذاهله .. غشيته نوبة إحباط وعجز ، ارتـــد علـــي أثرها إلي موقعه بالمنطقة شرق وادي الممر .. خيـــل إليـــه أنه مكبـــل فيها ، علي سرير فى العراء .. وفى الأثر مرقت دفعة أخـــري كـــادت تلامس أعمدة السرير .. خفض لها " إسماعيل " رأسه عنوة .. وتوالـــي صراخ الطلقات ، وأنين المصابين ... ترقب الجميع زلزلة الأنفجـــار.. لكنه لم يحدث .. بل أنفجرت صرخة اهتزت لها أرجاء العنبر :

– النكسة .. النكسة .. يا هوه الأجساد مبعثرة حولي .. ياه .. يـــاه.. وغاب " إسماعيل " عن وعيه..

حضرت عربة الإسعاف ، وتم إخلائه بهدوء وحذر .. حتى أنه لـــم يشعر بالأيدي التى سحبت البندقية من علي كتفه .

بدت اهتزازت العربة المنطلقة – علي طريق مصر / الســـويس – كهدهدات كف أم حنون ، توقظه حينا وتغيبه حينا ، يلقي فيـــه عنـــت أحلام مزعجة ، يتخللها شطر أسود من كهف ذكرياته الحزينة .. وجـــد له طريقا معبدا إلي خور النفس .

قرب منتصف الطريـــق ، وبـــالتحديد أمـــام اســـتراحة " ســـيدي الدكروري " توقفت العربة وفتح السائق زجاج الطاقة الموصلة ما بيـن " كابينة " القيادة وصندوق المحفات..

– هل أنت نائم يا أفندم ؟

– لا .. مجرد إغفاءة..

– أراك الآن أحسن .. حمد الله علي السلامة..

ناوله سيجارة مشتعلة .. دخنها بشراهة .. وهـــو يتـــأمل ملامـــح النقطة الإشارية التى طالما طاف بها ، وومضت حينا علي سطح حقبـة لا يستهان بها .. ماذا تغير منها .. ما زالت الأماكن لها نفس الرائحـــة التى استنشقها مع أول لقاء .. هل يمكـــن أن تطمـــس تلـــك الحقبـــة بسهولة ؟!

تذكر " رابحة " .. قال لنفسه .. " هل يمكن أن أراها بعد كل ما لقيت مني من أهمال وجحود .. وبعد كل مالا قيت من أهوال " .. القي بـــالعقب المشتعل بعيدا .. ثم مالت رأسه فى اغفاءة جديدة..

استيقظ من جديد ليجد نفسه محمولا علي محفة متحركة تنزلق بـــه فـــى نعومـــة ، علـــي رواق طرقـــة شـــديدة الاضـــاءة والنظافـــة.. توقفت المحفة ليري شابا فى كامل هندامه المدني يميل علـــي رأســـه ويهمس له :

– حمد الله علي السلامة يا وحش..

– الله يسلمك..

– أسمك .. سنك .. عنوانـك .. أهلك .. مكـــان الإصابـــة .. أعنـــي المنطقة التى أصبت بها .. رقم وحدتـــك .. أقـــرب الزمـــلاء .. عـــدد الإصابات بينهم .. و .. و..

تردد " إسماعيل " وهو يعيد تأمل الهندام .. ثم قال بضيق .

- ايه .. استجواب يعني !!..

- لا تخف يا أفندم نحن زملاء .. أنا .. ضابط خدمة اجتماعيـــة.. أخرج بطاقة تحقيق شخصية .. بدأ " إسماعيل " يجيب إجابات مقتضبة.

- حسنا مع السلام .. أنت هنا بمستشفي " دار الشفاء " .. اطمئن.. الجميع فى خدمتك إغفاءة أخري ليفيق علي صـــراخ حـــاد لامـــرأة ، أزعجها منظره الغائص فى الدماء .. كان الطبيب يدفعها إلـــي خـــارج حجرة الأشعة علي مقعدها المتحرك .. وهي ما زالت تولـــول بصـــراخ مؤلم .. ثم حمل " إسماعيل " بوضعه الراقد إلي منضدة أســـفل جـــهاز الأشعة .

هذه المرة أيقظه وشوشة وهمس بيـــن " صـــلاح نـــور الضـــابط المهندس " ، والراقد علي السرير المجاور ، وبين صوت نسائي خشن .. لم يكن غريب عليه..

– يحفظك ربنا .. دخت السبع دوخات بيـــن جميـــع مستشـــفيات مصر .. شكله تغير كثيرا مما جعلني أشك أنه هو..

– تأكدي يا سيدتي .. أنه هو بشحمه ولحمه .. وليس كثير علينـــا أن نتحمل ساعة أخري حتى يستيقظ من نفسه .. لأنه خارج من حجـرة العمليات ليلة الأمس فقط .. ولم ينم ، وكذا لم يجعلنا ننام مـــن كـثرة صراخة .. وأحلامه ، وتخاريفه .. دائما يتخيل أن الطائرات تمـــر مـــن فوق سريره .. وتقصفه..

– كنت مع الطبيب من قليل .. وهو يحبذ إيقاظه..

فتح " إسماعيل " عينيه .. ظل لفترة لا يستوضح شيئا .. ثم انتفـض فجأة كما لو كان يحاول القيام بالرغم مما هو فيه .. وضحت الرؤيـــة.. كانت هي " رابحة " .. و .. بالقرب من باب الحجـــرة يقـــف كـل مـــن " صابر" و " عزت " يكتنفهم صمت موشح بالحزن والخشوع .. كأنـــهم في حضرة ميت .. لم تكن تصدر عنها حركة أو نأمة .. حتى بعـــد مـــا وضحت عليه علامات الحياة .. كان حتى هذه الساعة يحـــس بســـاقه اليسرى كاملة ، وبالرغم من بعض الآلام ، والخدر الناتج عن البـــتر.. وكان يخيل إليه أن يستطيع أن يحرك كل أصبع بها ، وينسي فعلا مـــا هو فيه ، ويوالي شد عصب الحركة لكل أصبع علي حده لكي يجربـه..

وقد انتابه هذا الإحساس حال قدومها .. وحاول الجلوس .. بل فكر فـــي الوقوف .. لكي يحتضنها .. من شدة شوقه وحرمانه..

- من .. " رابحة " كيف عرفت .. بل كيف وصلت..

صدته صدا خفيفا ، باشارة من يدها :

- استرح أولا لا نريد ازعاجك

ثم قامت لتعدل من وضع الوسادة تحت كتفيـــه بحنـــان ، فلاحــت لأعين " إسماعيل " آثار حمل ظاهر عليها ، من انتفاخ بطنها .. وبــطء حركتها .. الأمر الذى أثار دهشته .. وجعله يسترق النظر إليها .. وهـــى تفسح لنفسها مكانا - لتجلس نصف جلسة - بجواره علي الســـرير.. وقد مالت لتمسح جبهته بكف يدها الخشن .. ثم توجهت إلي مرافقيـــها بصوت الولي الأمر :

- تعالي يا عم " صابر " أنت و " عزت " ســلما .. ثــم أنتظرانـــي بالخارج .. الطبيب أكد علي عدم الأزعاج .

تقدم كل منهما بخشوع .. وسلما .. ثم إستفسرا عن صحته بـــأدب جم وأنصرفا ، وفى أثرهما الضابط " صلاح نور " الذى كان مصابا فى يده .. لادراكه أن ذا لقاء علي مستوي خاص .. ولم يكن هنـــاك غــيره بالحجرة..

- كيف عرفت باصابتي .. وكيف وصلت .. ثم .. ثم..

وهو يشير إلي بطنها :

- ما هذا ؟!

ابتسمت بخفر .. وتجاهلت الشطر الأخير من السؤال..

- تلك حكاية يطول شرحها .. لن تصدق ما سأقول .. لقد توقفـــت عربة إسعاف باستراحة الدكروري " ونزل منها أحد المسعفين .. وأثناء

الحديث مع عمال الاستراحة .. قال لهم .. أن هذه العربة تقل أحد الضباط أسمه " إسماعيل " .. هذا الضابط ، بالرغم من أنه قد تهشمت ساقه .. ولا يستطيع أن يفيق من إغمائه إلا أنه يريد العودة .. وقد ظل محتفظاً بسلاحه، ولم نستطيع تخليصه من علي كتفه إلا بصعوبة ، وحال الإغماء .. ولم يتنبه " صابر " ويرشده قلبه إلا بعد أن مضت العربة إلي حال سبيلها

– فعلا .. توقفنا عند الاستراحة .. وكدت أصرخ مناديا " صابر ".. لكن العربة .. مضت .. و

واصلت رابحة :

– تلقف قلبي الإشارة من فم " صابر " .. وقلت لنفسي .. لا يمكن أن يوجد " إسماعيل بهذا المعني سوي أنت .. فأنت صنف من الناس الذين لا يستسلمون بسهوله..

لماذا تروغ مني هذه البنت ؟! .. تزوجت هي الأخري !! .. أحس بلذعة مشبعة برائحة التخدير .. كادت أن ترديه فى غيبوبة .. من أجل واحدة غاب عنها ولم يشعر بقصر الأيام .. قاوم .. قاطعها بحسم :

– أجيبيني .. ما هذا ؟!

صمتت هنيه ، وهى تواري حرجا .. ثم قالت كمحاولة أخيرة للإفلات :

– صبرا .. أنت تتعجل ما يزعجك .. وهذا ليس فى صالحك.. نريدك أولا أن تهتم بصحتك .. ثم سيأتي كل شئ فى حينه..

توجس " إسماعيل " :

– بل أريد أن اعرف كل شئ الآن .. الغموض يزعجني.. وسيهدمني ..

حوصرت .. أحمر وجهها :

- حسنا أذا كنت تريد أن تعرف الأن .. فهذا هو أبننا..

بوغت " إسماعيل " .. لأول مرة يجابه بهجوم ، لم يكن يتوقعه منذ هجوم الطيران عليه بالمنطقة الجبلية شرق وادي الممر .. لكنه كان هجوما من نوع آخر .. أصاب القلب فى الصميم .. ماذا لو كان قد مات !! .. أتكون له بذرة تستطيع أن تنبت حيا يتحرك علي سطح الحياة لكي تكمل دورتها الحتمية ..أحس بقشعريرة ، لم يدر أكانت بداعي الشوق .. أم السخط علي نفسه .. أم مزيجا منهما .. لكن .. لم يزل الباب مفتوحاً .. فهو لم يتأكد بعد .. وهذا الصنف الجاد من النساء لا يعرف الكذب أبدا .. أذن ليجذب المقبض .. حتى يتأكد بنفسه .. مجرد محاولة أخيرة .. لم يكن يعرف كيف يبدأ .. لكنه قال :

- هو أبنك أولا .. لماذا اخترتني أنا بالذات لكي أكون أبا..

شعر بعمق الإهانة الموجهة .. لكن فات أوان التراجع .. قالت بتهكم مرير :

- أنا الأم .. وأعرف كيف اختار ..

خطوة أخري تورط بها أكثر من ذي قبل :

- ولكني لم أختار..

قالت بحنق :

- أذن لم أتيت إلينا بحثا عني .. يجب أن تكون أكثر صراحة.. البعد عن الصراحة هو الذى أغرقنا .. ماذا حدث لك ! .. لم أعهد منك فيما مضي سوي الصدق والشجاعة .. بحثت عني لأنك تريدني .. هذه المرة أنا التى بحثت عنك .. لأني أريدك لذاتك .. لا تظن أني نسيتك ، خلال غيبتك .. بل أني لا أعتبر تلك غيبة .. فقد كنت معي فى كل لحظة..

بعد أن قامت الحرب .. لم أكن أريد منك شيئا سوي العودة بالسلامة.. فقط جرت علي حقك فى الاختيار .. وقلت للجميع أنك أحببتني وتزوجتني سرا .. لخلاف بينك وبين أهلك .. الذين يريدون تزويجك لقريبة لا تحبها .. وقد وعدت بإعلان زواجنا فور إزالة الخلاف .. كل ذلك لكي احتفظ بابننا .. أسفه أقصد أبني .. فأنا لن أحملك مالا تريد ، ما حييت .. لم أعبا بنظرات المحيطين .. ولا بملاحقة أبن عمي لي.. الذى كان يهددني بالفضيحة ، إذا لم أرضخ لمشيئته .. بإخبار الناس أنني أحمل سفاحا .. لم أضعف .. بل أني كنت أتحداه .. وكان يخشاني .. لقد لاقيت الكثير .. وأنت لاقيت ، وتطهرت .. ولا يجوز إزعاجك .. فقط سأدع لك الخيار .. إذا كان هذا ما يقلقك .. وسأتحمل النتائج وحدي..

توقفت عن الحديث قسرا ، وهى تقاوم نوبة نشيج مكتوم .ودمعت عيناها ولأول مرة يشهد " إسماعيل " لحظة ضعف واحدة لتلك المرأة الصلبة .. أحس بدفقه حنان وشفقة .. لم يشأ أن يعلن عنها .. إمعانا فى تحدي نفسه قبلها .. ثم .. ثم لم يستطع أن يصمد فمال إليها قدر ما استطاع .. ومد إليها يده .. كمن يطلب عونا لثمته وهي تداري دموعها .. وانصرفت مسرعة .

لم تنقطع " رابحة " عن زيارة المستشفي .. وقــد لاحــظ عليــها " إسماعيل " أنها أصبحت ترتدي الزي الأبيض ، وتضع عليه علامـــة الهلال الأحمر .. أزعجه ذلك ، فقد كان حملها فـــي أيامــه الأخــيرة.. وكانت تعوده ، وهي بادية الإرهاق .. كان ينبهها إلي خطورة ذلك .. إلا أنها لم تكن تأبه .. وعادت كما كانت ــ قوية صلبة .. تبعد ما أمكن عن حديث الحمل والولادة ، وتوصد بابه عمـــدا ، حتـــى تحجـــب ريـــاح الأشواك .. وتدور به حول مشاريعها ، التى لم يشهد ازدهارها الباهر ، أبان غيابه ، خاصة المتجر الثاني لقطع الغيار بوسط البلد .. وذات مرة أخبرته أنها عثرت علي شقة بالدقي استأجرتها سكنا ، وأنها ســـتنقل إليها قريبا هي وأمها ، وأخيها " عزت " وستترك الشقة الحالية لصابر وزوجته .. بعد استكمال الديكورات بما يليق بالحي الجديد .. وعندمـــا علمت بأنه سيوفد – عما قريب – لرحلة عـــلاج بألمانيـــا الغربيـــة.. للنقاهة وتركيب جهاز .. تجاهلت أمانيـــها ، وتحملـــت قســـوة الغيبـــة المقبلة .. وبدأت تحدثه عن رغبتها فى تحويل مجـــري نشـــاطها إلـــي تجارة السيارات ، فيما لو ساعدها فى الحصول علي توكيل مـــن أحـــد شركات ألمانيا الغربية .. وقد تعجب لغرابة طلبها ، ووعدهـــا ، بعـــد إلحاح ، أن يبحث الأمر .. وهو لا يعرف علي وجه اليقين ، مـــا هـــو السبيل إلي ذلك .. وقال لنفسه : " هذه المرأة أصلب من رجل .. فـــالحب شئ فى حياتها بجانب أشياء أخري .. وبالرغم من ذلـــك فـــهو يبـــدو بالنسبة لها شئ لا يستهان به " .

وقد لاحظت " رابحة " في غضون مدة ترددها عليه أن أحداً من أهله ، لم يزره مثل باقي المصابين ، فقالت له يوما :

– هل يمكن أن تسافر ، لغيبة أخري ، دون أن تبلغ أهلك ؟!

– هذا شئ سابق لأوانه .. لم يتقرر بعد موعد سفري .

– لم لا تبلغهم حتى يروك !!..

– لا أريد أن أسبب لهم صدمة .. أخاف علي صحة والدتي المريضة .

– سيعلمون أن آجلا أو عاجلا .. وسأبلغهم أنا حتى لو سافرت لهم بنفسي..

– لا أريد أن أتعبك .

– وهل هذا تعب .. أعطني عنوانا أو رقم تليفون..

أعطي لها رقم تليفون متجر قريب ، وأوصاها أن تخفف من وقع الخبر بشتي الطرق ، معتمدا علي ذكائها في ذلك .. وقد أوفت .. ففي أول أيام عيد الفطر .. هل عليه وفد ، من البلدة ، لم يترك ثغرة بالحجرة .. وكما توقع أنهارت والدته لحظة رؤيته وأغمي عليها.. وتولت " رابحة " العناية بها ، والتخفيف عنها .. إلي أن عادت إلي رشدها ، ورضيت بالمقدر .. وفي المرات التالية كانت لا تتركها لأشجانها .. بل كانت تمازحها ، برقة تفوق الوصف .. حتى ألفتها الأم ، وكانت تسأل عنها حال غيابها .. وذات يوم ، سألته في همس أثناء وجودها :

– دكتوره هي ؟

– لا أنها تعمل بسمكرة السيارات .

– تعني مهندسة .

هز رأسه وهو يكتم ضحكة لهذا اللبس الموفق :

- هو ذاك .

- ألا تريد أن تبحث لنفسك عن عروس حلوة مثلها .

أدركت " رابحة " بحاستها .. أنها قد دخلت قلب الأم ، من أقصـــــر طريق .. وأن الحديث الآن يدور حولها .. أنتابها خجل لم تصادف مثلـــه علي محياها .. الأمر الذى اهتز له " إسماعيل " بدفقات شوق عنيفـة.. كيف يمكن إفهامهم .. الطريق طويل وشائك .. آثر الصمـــت .. وعـــول علي رحلة الخارج أن تعيد إليه قدر من هـــدوء النفـــس ، واســـتقرار الروح .. لكي يأخذ بناصية قرار ، لا يقل شجاعة عن قرارها .

أخيرا أمكن للعربة أن تتخلص من عنق الزجاجة ، وأصبحت علـى مشارف الكوبري .. ثم أخذت تنهب الطريق بلا انقطاع .. كلص يـهرب من مطاردة .. قالت الزوجة بانفعال :

- ألم يكن من الأفضل يا " فايز " أن تقود بدلاً مني !!

ثم زفرت ملء صدرها :

- يا فيفي .. يا حبيبتي .. أنت تعرفين جيداً أنـي لا أجيـد القيـادة وسط الزحام .. صرخت " فريدة " بنفاذ صبر :

- أين الزحام .. أنت في نومة !! نحن نعبر كوبري ٦ أكتوبـر .. والقيادة الآن أصبحت أسهل..

وصمتت لحظة لتواري نوبة السخط الضاغطة علي أعصابها .. ثـم واصلت :

- ثم ما هو رأيك في منظري ، والناس عند كل اشارة تبحلق فـي وجهي ، وأنت منجعص خلفي ، كملك في زمانه .. ألا تري فـي ذلـك غضاضة !! .. ما رأيك ؟! .. لم لا ترد..

نظرت خلفها بعصبية .. بعد هنيهة صمت متعمدة ، من جانبه .. رد باستخفاف :

- آسف يا زوجتى الحبيبة .. لم أكن معك .. دعينا مـن مشـكلة القيادة .. ألا تريدين أن تعرفي فيما كنت أفكر .. لقد شردت قليلا مـع عصر الانفتاح هذا .. ألا ترين معي أنه قد جعل الرعاع يتحكمون فـي السوق .. نظرة إلي كل الشركات التى طفنا بها الآن .. تجـدين أغلـب أصحابها جهلة بأمور التجارة .. بل أن بعضهم - بالرغم من ثرائـه -

لا يجيد القراءة والكتابة .. بالرغم من أن مجال تجارة السيارات يحتـاج لخبرات من نوع خاص ..أنهم يعتمدون علي خبرات غيرهم من أمثالنـا أصحاب الدراسات والشهادات .. يشترونهم بالمال .. المال أصبـح الآن يشتري كل شئ .. ولا أستبعد أن يكون صاحب شركة " رابح " للأستراد والتصدير " واحد منهم .. مجرد جاهل ، يملك نقودا..

– ماذا تعني ؟! .. والدي لا يحمل شهادات..

رد بتملق فاضح :

– ياه تقصدين الحاج .. الحاج يا سلام .. ونعم التجار .. أنه رجـل عصامي بمعني الكلمة .. وليس كأغنياء الحرب هؤلاء..

وحتى يزيل الأثر الباقي لسوء الفهم .. هرب من حلبة المواجهة :

– تعلمين أني بجانب دراستي فى الطب أفهم جيدا فى النظريـات الاقتصادية .. ولا أخفي عليك .. لقد درسـت كـورس فـى الاقتصـاد السياسي بأحد جامعات لندن .. وخرجت من هذا بأن العالم الحر ، هـو مستقبل البشرية .. وأن الحرية الاقتصادية هي التـى تحفـز مواهـب البشر .. لكني هنا فى بلد العجائب ، لا أفهم معني لهذا التردي .. جـاهل يطاول دكتور .. ويجعل من نفسه ندا..

قالت بقرف :

– وماذا تريدها أذن ؟!

– رأسمالية .. اشتراكية .. شيوعية .. مهلبية .. المهم الرعاية كـل الرعاية للأذكياء .. ولا شئ لهذا " الواغش " .. البقاء للأذكـي .. حتـى يحدث التقدم المنشود .

أرادت أن تقطع ثرثرته .. قالت :

– " فايز " .. هاك محطة " ومبي " أنزل لتسأل عن الشركة..

– لم يبق إلا هذا .. أنا أسأل ؟! .. لنأخذ امتداد الطريق .. كما قـالوا لنا .. اعتقد أن ميدان الدقي قريب من هنا .. وعنـده يمكـن أن نصـل بسهولة دون حاجة لسؤال..

– أذن فأنت لا تريدني أن أخرج من هذه الكراكة .

* * *

لم تكن هناك واجهة تميز " فيلا " الشركة عن باقي عمائر الشـارع الجانبي الهادئ سوي لوحة نحاسية وقورة .. وقار المبنـي العتيـق.. وعامل نوبي أسمر أسـمه " صـابر عبـد الله " فـى كـامل الـزي الرسمي .. وقد آثار الاسم دهشة السيدة " فريدة " إذ قـالت لزوجـها الدكتور " فايز" :

– من العجيب ألا يسمي هذا .. عثمان أو عبده حسبما هو شـائع.. خاصة وأنه يجيد فن الانحناء والأدب..

ولم تعجبها أيضا السكرتيرة .. إذ بالرغم من جمالها الملفـت فـإن صوتها خشن وبه نبرة رجالي .. وهي أيضا قليلة الذوق ، أذ جعلتـهم ينتظرون الأستاذ المدير العام أكثر من اللازم بالرغم من أنها قد أطلعت علي مهنة المنتظر .. ثم قالت لنفسها : " النقود هي كل شئ .. صدقـت فى هذا يا فايز " .. ولم يفوتها أن تدلـي بـهذه الملحوظـة النسـوية الهامة .. فمالت علي أذن زوجها .. وهمست :

– هذه البنت شكلها بلدي :

– ما هذا يا " فريدة " !! هل ضعف نظرك .. أنها طبق مهلبية..

قالها وابتسم فى بلاهة متحاشيا نظراتها الناريـة .. وظـلا علـي وضعهما بحجرة السكرتيرة لفترة أثارت الضجر ..إلي أن فتح البـاب ،

وظهر علي أعتابه صبي متأنق فى بزة كاملة .. يحمل بعض الكراسات.. لم يكتمل خروجه فكان ما يزال يحدث من بالداخل .. والصوت الآخر يلاحقه :

- لا تتأخر يا " عزت "

كان الصبي يكتفي غالبا بالايماء ، شأن الناضجين ، ولم تطق " فريدة " صبراً علي ذاك الحوار الممطوط .. فقامت دون استئذان لتقتحم حجرة المدير ، وفى أعقابها الزوج .. إلا أنها لدي اقترابها من المكتب بعدة خطوات .. توقفت تلقائيا ، وهي لا تصدق ما تري..

- من " إسماعيل " .. أأنت المدير العام .. لو كنت أعرف..

- من " فريدة " .. لم يقل لي أحد..

ثم بعد هنيهة تأمل واندهاش اندفعت لتشد علي يده بحرارة.. متعمدة أن تبقي يدها أكبر مدة ممكنة .. كان الزوج يقف مشدوها ، وهو يسائل نفسه .. من هذا هو الآخر ؟! .. لم يبق سوي العناق ، حتى يتم التعارف ، كما يجب..

- تعالي يا " فايز " .. أعرفك زوجي الدكتور " فايز الشلقاني "..

- أهلا وسهلا اتفضلوا..

- " إسماعيل أمام " ..أحد أقرباء والدي..

تأملة الدكتور " فايز " بإمعان ، وجده يتوكأ علي عصا حال الوقوف ، ويعمد إلي التحامل علي جانب دون الآخر .. قال لنفسه بمرارة .. وأيضا أعرج .. كنا نقول جاهل فقط .. يا ضيعة السوق .. ولم يشأ أن يقحم نفسه فى نطاق الدائرة المغلقة للحوار الذى بعد تماما عن اهتماماته .. وظل علي حاله يرقب ما حوله بذهول .. ويعجب لمن جمع الشامي علي المغربي .. وقالت " فريدة " :

- لك وحشة..

- فى الحقيقة كنا نبحث عن عربة .. تغيير طراز يعني .. وعرفنـــا أن توكيلكم يوجد به أذواق رفيعة .. لكن ما دمنا قد التقينا بـــك .. فـــلا داعي للعجلة .. وسنؤجل ذلك إلي ما بعد قيامك بزيارتنا .. وأرجـــو أن يكون ذلك فى القريب .. ناولته ورقة بها العنوان..

- علي الرحب والسعة .

- هل هي شركتك ؟! .

- أنا والزوجة .. التى تجلس بالمكتب المجاور..

أذن فهي ليست سكرتيرة .. وأنا من قلت .. لـــم كـــل هـــذه الثقـــة والجرأة .. انتابتها قشعريرة غيظ .. حاولت إخفائـــها بتغيـــير مجـــري الحديث..

- ما حكاية الاسم .. ولماذا " رابح " بالذات ؟!

- هو أسم أبني .. أطلقته علي الشركة لأنه صاحبـــها الحقيقـــي .. كالعادة لم نربح شئ .. وربح غيرنا كل شئ .

فهمت المغزى وتجاهلته :

- لكنه أبنك علي أي حال..

- أقصد أنه ربح دون أي جهد..

- باسم الله .. ما شاء الله .. هل هو أبنك الذى خرج منذ قليل .

- بل صهري .. وكنت أعطيه بعض الدروس .. فقد أدخلته المدرسة علي كبر .. هذه حكاية يطول شرحها .. دعينا من كل هذا .. مـــاذا عـــن الشعر الآن..

- حقيقي تريد أن تعرف .. أذن رجائي أن تحتمـــل مـــرارة هـــذه الكلمات :

" الشعر يا رفيقي ، فى هذا الزمان
كالثغاء..
لا تعرف أن كان ينطق ماء..
أم ألف باء..
أو كالأرق
الشعر حبر علي ورق " .

- قصيدة هي..

- بل ارتجال .. من وحي اللحظة..

حال السؤال .. كان يدور بخلده نفس المعني ، وخجل أن يعلنـــــه.. ابتسم لتوارد الخواطر .. ثم لم يلبث أن جرفته نوبة من الضحك - لـــم يقف لها علي سبب واضح - هزت كيانه بالكامل .. وجرفت فى طريقها كل معقول .. إلي أن قطعتها " فريدة " باشفاق وحزن :

- الم أقل يوما أننا سنصبح أصدقاء .. وقد كان..

حل صمت ما بعد النوبة .. تنبه الدكتور " فايز " للسكون المفـــاجئ الذى أحدث ثغرة بالدائرة المغلقة .. قال :

- فى الخارج يعتبرون الصداقة ما بين الجنســـين مـــن الأمـــور الطبيعية..

أطلت " رابحة " من فرجة باب المكتب ، بملامح جـــادة ، أخـــذت هيئة من يطلب قدرا من الهدوء .. تأملت الموجودين باندهاش .. وقالت:

- لقد وصل المندوب .. وهو عندي الآن بالمكتب..

بلا اهتمام ، رد " إسماعيل " :

- دعية ينتظر .

انتهت

المؤلف :

- علي إبراهيم حليمة .
- من مواليد السنبلاوين – دقهلية عام ١٩٤٢ .
- حصل علي ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٦٥.
- يعمل رئيسا لوحدة محلية .
- شارك في حرب أكتوبر ٧٣ ، ومنح عدة أنـــواط منـــها نـــوط الواجب العسكري من الطبقة الأولي ، نوط جرحي الحرب .
- نشرت أعماله بدوريات أدبية مختلفة منها ، الثقافـــة ، الثقافـــة الأسبوعية ، الثقافة الجديدة ، التحرير ، أدب ونقد ، القصـــة ، الأهرام المسائي ، المنصورة ، عروس النيل ، الرأي الأدبـــي ، نوافذ ، سنابل .
- حاز علي عدة جوائز في القصة والرواية مـــن نـــادي القصـــة بالقاهرة ، الثقافة الجماهيريـــة ، الشـــئون المعنويـــة للقـــوات المسلحة ، مديرية الثقافة بالدقهلية .

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٠/٤٥٩٩